رواية

صُوفِيا بتروفنا

ليديا تشوكوفسكايا

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمها عن الروسية
يوسف نبيل

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

صوفيا بيتروفنا

ليديا تشوكوفسكايا
ترجمة :يوسف نبيل

عن الكتاب..

تُعد هذه الرواية القصيرة من الكلاسيكيات الروسية المهمة المكتوبة عن فترة التطهير التي مات ضحيتها ملايين الروس. ترصد الرواية في الأساس تأثير الكذب على المجتمعات. قالت الكاتبة إنها أرادت أن تُبين كيف يمكن تسميم شعب بأكمله بالأكاذيب مثلما يمكن أن تتعرض قوات عسكرية للتسمم بالغاز. تناولت الرواية جوانب نفسية عميقة تشكلت في نموذج الأم، لتُبين كيف يمكن للدعايا الأيدولوجية حين تحيط المجتمع كاملًا أن تزرع الهلع في نفوس الناس فتشوه أقوى المشاعر الفطرية متمثلة في مشاعر الأم. تقدم لنا الكاتبة عبر بطلتها الروائية نموذجًا مخيفًا للمواطن السوفييتي في تلك الحقبة، كاشفة للصراعات النفسية التي ينخرط فيها حين تصدمه الأيدولوجيا التي تبناها بل عبدها؛ فإذا بها تختطف منه أسرته في مشاهد لا تصدقها عين.ليديا تشوكوفسكايا (1907 – 1996) شاعرة وروائية روسية وكاتبة مذكرات أُعدم زوجها في حملة التطهير، وأفلتت بصعوبة من المصير ذاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة المُترجِم..

في شتاء 1939 كتبت ليديا تشوكوفسكايا هذه الرواية التي تدور أحداثها عن حملة التطهير الستالينية في 1937. لأعوام طويلة ظلت هذه الرواية القصيرة حبيسة دفتر واحد صغير. لم تستطع الكاتبة أن تحتفظ بهذا الدفتر في منزلها الذي تعرض للتفتيش لأكثر من مرة. احتفظت به الكاتبة لدى أحد أصدقائها. قبل اندلاع الحرب العالمية بشهر واحد اضطرت الكاتبة إلى مفارقة لينينجراد والذهاب إلى موسكو لإجراء عملية طبية. بقي صديقها في لينينجراد. لم تستطع الكاتبة العودة إلى لينينجراد في أثناء الحرب، ومات صديقها هناك جوعًا إثر الحصار الرهيب الذي ضربته القوات الألمانية حول المدينة. قبل موته بيوم واحد فقط أعطى الدفتر لأخته وأخبرها أن تعيده إلى ليديا تشوكوفسكايا إذا كُتبت لهما الحياة.

عاد الدفتر فعلًا إلى الكاتبة، ومات ستالين. استطاعت الكاتبة أن تنسخ الرواية. قرأها بعض الأصدقاء وأشادوا بها. أخيرًا أرسلتها إلى إحدى دور النشر عسى أن تنال الموافقة على النشر.

نال الكتاب كل الموافقات اللازمة، حتى إن ليديا تشوكوفسكايا كتبت مقدمته فعلًا كما طلبوا منها، ووقعت العقد، ونالت 60 % من أجرها قبل النشر بحسب التعاقد. أخيرًا، وقبل النشر مباشرةً، رفضت كبيرة المحررين هناك نشر الكتاب، وقد اشتهرت بمناصرتها للنظام الستاليني. قررت الكاتبة مقاضاة دار النشر، حيث إن الكتاب نال كل الموافقات اللازمة وتم توقيع العقد. طالبت الكاتبة بحقها في تلقي الأجر كاملًا.

بالرغم من عدم تعاطف المحكمة مع مادة الكتاب في حد ذاتها فإنها حكمت لصالح ليديا تشوكوفسكايا، وأرسلت دار النشر بقية الأجر لها فعلًا، أما عن نشر الكتاب، فلم يكن للمحكمة دور في هذا.

انتقلت مخطوطة الكتاب من يد ليد، وعبرت الحدود، ونُشِرت كاملةً لأول مرة في باريس بعنوان: «المنزل المهجور»، ثم نُشرت في أمريكا ثم أخيرًا في روسيا على جزأين في مجلة «المجلة الجديدة»، ولم تُنشر في روسيا في صورة كتاب إلا في عام 1988.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليديا تشوكوفسكايا (1907 - 1996) شاعرة وروائية وكاتبة مذكرات، ابنة لكورني تشايكوفسكي، وهو كاتب شهير في مجال كتب الطفل. تزوجت من عالم فيزياء شاب، وقُبض عليه باطلًا في أثناء حملة التطهير الستالينية في

سنة 1937 وأعدم في سنة 1938، وكان من الممكن أن يُقبض على ليديا لولا بُعدها عن لينينجراد في ذلك الوقت.

ظلت تنتقل من مدينة إلى مدينة، واضطرت لمفارقة ابنتها، وظل مصير زوجها مجهولًا لفترة بالنسبة لها، وفي أثناء فترة الإنتظار هذه كتبت «صوفيا بتروفنا».

ليديا تشوكوفسكايا هي صديقة مقربة للشاعرة الروسية آنا أخماتوفا، وكذلك للأديب الروسي ميخائيل زوشينكو، وقد تعرضوا جميعهم للاضطهاد والقمع.

تُعد هذه الرواية القصيرة من الكلاسيكيات الروسية المهمة المكتوبة عن فترة التطهير التي مات ضحيتها ملايين الروس. تبدو طريقة كتابة الرواية خادعة بعض الشيء. في البداية قد يشعر القارئ أنها تفتقر إلى الجاذبية، حيث تتسم بلغة بسيطة بعيدة تمامًا عن الزخرفة والمجاز والصور الشعرية. رويدًا رويدًا يجد القارئ نفسه قد تورط بنعومة، من دون أن يدري، في أحابيلها، حتى يصل إلى نهايتها الكابوسية.

ترصد الرواية في الأساس تأثير الكذب على المجتمعات. قالت الكاتبة ذات مرة إنها أرادت أن تُبين كيف يمكن تسميم شعب بأكمله بالأكاذيب مثلما يمكن أن تتعرض قوات عسكرية للتسمم بالغاز. اختارت الكاتبة نموذجًا صعبًا على المستوى النفسي: نموذج الأم، لتُبين كيف يمكن للدعايا الأيدولوجية حينما تحيط بالمجتمع كاملًا وتزرع الهلع في نفوس الناس بدرجة مخيفة، أن تشوه حتى أقوى المشاعر الفطرية كمشاعر الأم. تقدم لنا الكاتبة عبر بطلتها الروائية نموذجًا مخيفًا للمواطن السوفييتي في تلك الحقبة، والصراعات النفسية التي ينخرط فيها حينما يجد الأيدولوجيا التي عبدها تختطف منه أفراد أسرته، ولا يصدق عينه.

تمتلئ الرواية بتفاصيل الحياة الإجتماعية في ذلك الوقت: الشقق المشتركة وعلاقات العمل، كما تعرض لنا تفصيلًا الإجراءات البيروقراطية المعقدة التي واجهتها الأسر التي فقدت ذويها في حملة التطهير. كل هذا يقدم لنا توثيقًا حيًّا لهذه الفترة، ولكن بالإضافة إلى أهمية الرواية التوثيقية، ثمة أهمية أدبية كبيرة أيضًا لها، حيث تقدم الكاتبة درسًا في الاختزال الروائي واعتصار الكلمات واستخدام أبسط العبارات لخلق رواية جيدة ومحكمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

صوفيا بتروفنا

-1-

بعد موت زوجها إلتحقت صوفيا بتروفنا بدورات تعلم الكتابة على الآلة الكاتبة. كان عليها أن تجد مهنة ترتزق منها، فلا يزال ابنها كوليا أمامه وقت طويل قبل أن يبدأ العمل. لقد أنهى المدرسة، وعليه أن يلتحق بأحد المعاهد بأي ثمن. لم يكن أبوه فيودور إيفانوفيتش ليسمح ألا ينال ابنه تعليمًا عاليًّا. تعلمت صوفيا بتروفنا الكتابة على الآلة الكاتبة بسهولة، خاصةً أنها تمتعت بمستوى تعليمي أفضل من هؤلاء الآنسات الصغيرات. أنهت الدورة بدرجة عالية، وسرعان ما وجدت لنفسها وظيفة في إحدى دور النشر الكبرى في لينينجراد.

استحوذت حياة العمل الوظيفي على صوفيا بتروفنا تمامًا. بمرور شهر لم تستطع فعلًا أن تفهم كيف استطاعت العيش سابقًا من دون وظيفة. صحيح أنها لم تحب النهوض مبكرًا وسط البرودة القارسة وضوء المصباح الكهربائي، وانتظار الترام، مرتجفة من شدة البرودة، وسط زحام من الوجوه الكئيبة التي لم تستيقظ بعد، وصحيح أنها بنهاية اليوم تشعر بالصداع من النقر على الآلات الكاتبة، ولكن بالرغم من كل ذلك، كم بدا لها العمل رائعًا! في أثناء صباها أحبت جدًّا الدراسة في الجيمنازيا ([1])، وكانت تبكي بمرارة عندما يبقونها في المنزل إذا أُصيبت بالبرد، والآن أحبت أيضًا الذهاب إلى العمل. بعدما لاحظوا في العمل مدى دقتها في أداء عملها عينوها رئيسة الضاربات على الآلات الكاتبة في المكان، وصارت مديرة مكتب الآلات الكاتبة إذا جاز التعبير. صارت مسؤولة عن تقسيم العمل وعد الصفحات والسطور وقطع الأوراق، وراقت كل هذه المهمات لصوفيا بتروفنا بدرجة أكبر بكثير من الضرب على الآلة الكاتبة في حد ذاته. تسمع طرقًا على نافذتها الصغيرة، فتفتحها وتستقبل الورق بإباء واقتضاب. في أغلب المرات تتضمن هذه الأوراق حسابات وخططًا وتقارير وخطابات وأوامر رسمية، ولكنها تتضمن أحيانًا بروفة ورقة كتبتها ضاربة على الآلة الكاتبة مُعيَّنة حديثًا. تقول صوفيا بتروفنا، ناظرةً إلى الساعة الكبيرة أمامها: «ستكون الأوراق جاهزة في غضون 25 دقيقة. لا، ليس قبل ذلك، بل بمرور 25 دقيقة بالضبط»، وتغلق نافذتها الصغيرة، ولا تنخرط في أي محادثات. بعد تفكير، تعطي الورقة المطلوبة كتابتها للضاربة على الآلة الكاتبة التي تعتبرها الأكثر ملاءمة لهذا العمل، وإذا كانت سكرتيرة المدير هي من جلبت لها هذه الورقة، فإنها تعطيها للضاربة الأسرع والأكفأ والأدق.

في شبابها، في الأيام التي شعرت فيها بالملل في أثناء قضاء فيودور إيفانوفيتش وقتًا طويلًا في زياراته خارج المنزل، حلمت أن تفتتح ورشة خياطة خاصة بها. حلمت بغرفة واسعة يملأها الضوء، تجلس فيها فتيات جميلات، تنكب كل منهن على الخيوط الحريرية المنسدلة، وتُوضِّح لهن

طريقة عمل النموذج المطلوب، وفي أثناء قياس الثياب تنخرط في محادثة إجتماعية مع سيدات المجتمع. بدا لها مكتب الآلة الكاتبة أفضل من حلمها السابق، فهو بصورة ما أكثر أهمية. تصادف كثيرًا أن تكون صوفيا بتروفنا هي أول من يقرأ مخطوطة عمل أدبي سوفييتي جديد، سواء كان العمل قصة أو رواية، وبالرغم من أن القصص والروايات السوفييتية بدت لها مملة لأنها تتضمن الكثير والكثير من المعارك والجرارات والورش الصناعية، وقدرًا ضئيلًا من الحديث عن الحب، فقد جعلتها تشعر بالإطراء. بدأت تلف شعرها الذي بدأ الشيب يغزوه مبكرًا، وأضافت بعضًا من الصبغة الزرقاء إليه في أثناء الاغتسال حتى لا يصير ضاربًا إلى الصفرة. اعتادت ارتداء فستان أسود بسيط بياقة مصنوعة من دانتيل رائع قديم، واعتادت أن تضع قلمًا رصاصيًّا مبريًّا في الجيب العلوي، وجعلها كل ذلك تشعر بالفاعلية والصلابة، وفي الآن ذاته بالأناقة. صارت مرهوبة من قِبل الضاربات على الآلة الكاتبة، وأطلقن عليها من وراء ظهرها «المُعلِّمة»، لكنها عرفت التسمية. أرادت أن تتحلى بالصرامة والعدل في الآن ذاته. اعتادت أن تتحدث بدماثة مع من يؤدين أعمالهن بجدية وإخلاص، وعادةً يتطرق حديثها إلى صعوبة قراءة خط المدير، وعن أن أحمر الشفاه لا يليق على الجميع. أما من يكتبن منهن البروفات أو من يعملن في جماعات فكانت تتحدث معهن بغطرسة. أثارت واحدة من الشابات، وتُدعى إيرنا سيميونوفنا، أعصاب صوفيا بتروفنا بشدة، فقد اعتادت أن تجد في كتابتها أخطاء في كل كلمة تقريبًا، كما أنها اعتادت التدخين بوقاحة والثرثرة في أثناء العمل. ذكَّرتها إيرنا سيميونوفنا على نحو مضبَّب بإحدى الخادمات الوقحات التي عملت لديها ذات يوم قديمًا. دُعيت فاني، وقد عاملت صوفيا بتروفنا بوقاحة وتدللت على فيودور إيفانوفيتش. ما الذي يجعلها تتمسك بشخصية كهذه؟

أكثر من أثارت إعجاب صوفيا بتروفنا من وسط جميع الضاربات على الآلة الكاتبة هي ناتاشا فرولينكو، وهي فتاة متواضعة، لا تتمتع بالجمال، ذات وجه يمزج بين اللونين الأخضر والرمادي. اعتادت أن تكتب من دون أن ترتكب خطأ واحدًا، وتبدو سطورها الحمراء والمتساوية أنيقة بدرجة مدهشة. عندما ينظر المرء إلى نتاج عملها يبدو له أنها تستخدم ورقًا خاصًّا، وأن آلتها الكاتبة أفضل بلا شك من بقية الآلات، ولكن في الحقيقة استخدمت ناتاشا ورقًا وآلة عاديين تمامًا، واقتصر السر على الدقة وحسب.

فصلت مكتب الآلات الكاتبة نافذة خشبية مطلية بلون بني عن المؤسسة كلها، وأُغلِق الباب دائمًا بالمفتاح، وتدور الأحاديث عبر النافذة. في البداية لم تعرف صوفيا بتروفنا أحدًا في دار النشر كلها عدا الموظفات العاملات على الآلات الكاتبة والموظفة التي تجلب الورق. لكنها تعرفت على الجميع تدريجيًّا.

مرَ أسبوعان سريعًا، واقترب منها في الردهة محاسب قوي البنية، وأصلع لكنه شاب، وتحدث معها قليلًا. تبين أنه على معرفة بصوفيا بتروفنا، فمنذ نحو عشرين عامًا مضت عالجه فيودور إيفانوفيتش بنجاح باهر. كان المحاسب مغرمًا بالتجديف والرقصات الأوروبية الغربية، وسُرَّت صوفيا بتروفنا بدعوته لها كي تنضم إلى نادي الرقص الذي يذهب إليه. بدأت أيضًا سكرتيرة المدير العجوز والمهذبة في إلقاء التحية عليها، كما بدأ مدير قسم شؤون الموظفين ينحني لها بالتحية، وكذلك بدأ يفعل كاتب مشهور وسيم وأشيب الشعر يرتدي قبعة من جلد القندس، ويحمل حقيبة محفورة عليها حروف اسمه الأبجدية، اعتاد أن يأتي إلى دار النشر بسيارته الخاصة. حدث أيضًا أن سألها الكاتب ذات مرة عن رأيها في الفصل الأخير من روايته. قال لها بابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه المحشوة: «نحن، رجال الأدب، لاحظنا منذ زمن طويل أن الضاربات على الآلات الكاتبة هن أفضل من يُصدر أحكامًا صائبة عن العمل. إنهن يحكمن فورًا على العمل، ولسن مهووسات بأفكار سابقة مثل بقية الرفاق من النقاد أو المحررين». تعرفت صوفيا بتروفنا على سكرتير الحزب تيموفييف الأعرج والملتحي. اتسم بالتجهم، وكان يتحدث وعيناه مصوبتان إلى الأرض، وقد خافت منه صوفيا بتروفنا قليلًا. يقترب من النافذة الخشبية ذات مرة ويسأل عن إيرنا سيميونوفنا، ويأتي معه سكرتير الحزب. تفتح لهما صوفيا بتروفنا الباب، ويسحب سكرتير الحزب الآلة الكاتبة الخاصة بإيرنا سيميونوفنا من قسم الآلات الكاتبة إلى إدارة خاصة. تتبع إيرنا سيميونوفنا آلتها وتبدو عليها ملامح الانتصار، ويوضحان لصوفيا بتروفنا أن إيرنا سيميونوفنا قد أُلحِقت بعمل سري، وقد كلفها سكرتير الحزب بنسخ بعض أوراق الحزب السرية في هذه الإدارة الخاصة.

سرعان ما تعرفت صوفيا بتروفنا على جميع العاملين في دار النشر؛ عرفت أسماءهم الكاملة ووظائفهم ووجوههم؛ تعرفت إلى مسؤولي الحسابات والمحررين والمحررين التقنيين والساعيات. بنهاية الشهر الأول من عملها هناك استطاعت أن ترى المدير لأول مرة. رأت سجادة زغبية تفترش الأرض في مكتبه، وتراصت حول المكتب مقاعد عميقة وثيرة، كما رأت ثلاثة هواتف على المكتب. بدا المدير لها شابًّا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين، متوسط القامة، حلق لحيته بعناية، وقد ارتدى بدلة رمادية، وعلى صدره ثلاث شارات، يمسك دائمًا وأبدًا قلمًا في يده. تحدث مع صوفيا بتروفنا لمدة دقيقتين تقريبًا، لكن في أثناء هاتين الدقيقتين رن الهاتف ثلاث مرات، وتحدث في أحد الهواتف، وأمسك باليد الثانية هاتفًا آخر. سحب لها المدير بنفسه المقعد، وسألها بأدب عما إذا كان بالإمكان أن تبقى مساء اليوم بعد انتهاء ساعات العمل الأساسية لتعمل وقتًا إضافيًّا. قال إن عليها أن تختار إحدى الكاتبات وتملي عليها تقريرًا. قال لها مبتسمًا: «لقد سمعت أنكِ تستطيعين فهم خطي

البشع بصورة رائعة». خرجت صوفيا بتروفنا من المكتب فخورة بسلطة المدير، وقد شعرت بالإطراء من ثقته بها. إنه شاب مهذب. يقولون عنه إنه بدأ حياته العملية كعامل وترقى بمجهوده. بالفعل تبدو يداه خشنتين، لكن كل شيء آخر فيه لا يبدو كذلك.

بدا الإجتماع الأول الذي تحضره صوفيا بتروفنا، وقد إجتمع فيه موظفو دار النشر جميعًا، مُملًّا. ألقى المدير كلمة قصيرة عن وصول الفاشيين إلى السلطة وعن حريق الرايخستاج في ألمانيا ([2]) ثم رحل في سيارته «الفورد». تحدث بعده سكرتير الحزب الرفيق تيموفييف. لم يكن يجيد إلقاء الخطب؛ يتوقف بين كل جملتين طويلًا حتى يبدو للمستمعين أنه أنهى كلمته: «علينا أن نعززززز إنتاجيـــــــــ... تنا...»، وهكذا تحدث حديثًا مملًّا ثم صمت.

بعدها تحدثت ممثلة النقابة العمالية المحلية، وهي سيدة ممتلئة، ترتدي حجرًا كريمًا على صدرها. قالت وهي تفرك وتعتصر أصابعها الطويلة إنه في ضوء الأحداث الجارية يجب قبل أي شيء آخر تكثيف يوم العمل، وشن حرب لا هوادة فيها على التباطؤ. أخيرًا، وجَّهت رسالة موجزة بصوت هستيري إلى تيلمان ([3])، وعرضت على الموظفين كافة أن يشتركوا في منظمة العون الدولية ([4]). لم تفهم صوفيا بتروفنا علام يدور الحديث تحديدًا بصورة واضحة، وشعرت بالملل، وأرادت أن ترحل، لكنها خافت أن ترتكب فعلًا خاطئًا، ونظرت بصرامة إلى إحدى الكاتبات التي شقت طريقها صوب الباب.

لكن سرعان ما لم تعد الإجتماعات مملة لصوفيا بتروفنا. في أحد هذه الإجتماعات، وفي أثناء الإبلاغ عن تنفيذ الخطة ، قال المدير إن مؤشرات الإنتاج المرتفعة التي يجب تحقيقها تعتمد على الانضباط العمالي الواعي لكل عضو من أعضاء الجماعة، وليس فقط على وعي المحررين والمؤلفين، بل كذلك على وعي عاملات النظافة والساعيات وكل ضاربة على آلة كاتبة. قال: «ولكن يلزم أن نعترف أن مكتب الآلات الكاتبة تحت إشراف الرفيقة ليباتوفا يعمل بالفعل في الوقت الحالي بكفاءة استثنائية».

احمر وجه صوفيا بتروفنا، وترددت طويلًا قبل أن ترفع عينيها. عندما رفعتهما أخيرًا لتنظر إلى من حولها، بدا لها الجميع طيبين ورائعين بدرجة مدهشة، وبدت لها فجأة الأرقام والإحصائيات مثيرة جدًّا للإهتمام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-2-

الآن تقضي صوفيا بتروفنا وقت فراغها كله مع ناتاشا فرولينكو. بمرور الوقت قل وقت فراغها تدريجيًّا. ساعات العمل الزائدة، والأكثر من ذلك إجتماعات النقابة العمالية المحلية التي سرعان ما صارت صوفيا بتروفنا عضوة فيها، اقتطعتا منها فترة المساء بأكملها تقريبًا. صار على كوليا في أغلب الأوقات أن يُعد الغداء لنفسه، وأطلق على صوفيا بتروفنا مازحًا «ماما الناشطة الإجتماعية». كلَّفت النقابة العمالية المحلية صوفيا بتروفنا بجمع الرسوم النقابية. لم تفكر صوفيا بتروفنا طويلًا في الهدف المحدد من وجود نقابة عمالية، لكنها أُعجبت بترتيب الأوراق ووضع علامة في مربعات محددة على من دفع رسوم الشهر الحالي ومن لم يدفع، كما أُعجبت بلصق الطوابع البريدية وتقديم تقارير لا تشوبها شائبة للجنة مراجعة الحسابات. أعجبتها إمكانية أن تدخل مكتب المدير في أي لحظة، وتُذكِّره مازحة بتسديد دينه الذي امتد لأربعة أشهر، وكيف يعتذر مازحًا للرفاق في لجنة النقابة العمالية الذين تحلوا بالصبر، ويخرج المال ويسدد ما عليه، بل صار بإمكانها أن تُذكِّر سكرتير الحزب الأعرج نفسه بدينه من دون أن تتعرض لأي خطر.

بنهاية العام الأول من عملها وقع حدث جلل لصوفيا بتروفنا؛ حضرت الإجتماع العام للموظفين نيابة عن جميع العاملين غير الحزبيين بدار النشر. حدث الأمر على النحو التالي: انتظروا في دار النشر وصول بعض الرفاق المسؤولين من موسكو. ظل سكرتير الحزب، وهو شاب ذكي ذو فرقة شعر دقيقة، يشبه الجنود المكلفين بخدمة الضباط، يهرع هنا وهناك في دار النشر طوال أيام كاملة، جارًّا بعض الهياكل المسنودة على ظهره، وأمر بتلميع أرضيات مكتب الآلات الكاتبة في وقت غير ملائم بتاتًا. حدث أن اقترب سكرتير الحزب الأعرج من صوفيا بتروفنا في الرواق ذات مرة. قال لها، ناظرًا إلى الأرض كعادته: «لقد اختارتك المنظمة الحزبية واللجنة النقابية المحلية؛ أقصد اختارتكم ([5]) لحضور الإجتماع باسم الأعضاء غير الحزبيين».

عشية وصول المسؤولين الموسكوفيين، إزداد حجم العمل المطلوب تنفيذه. كتب الموظفون في المكتب كل أنواع الحسابات والخطط. مكثت صوفيا بتروفنا في كل مساء تقريبًا لساعات عمل إضافية بصحبة ناتاشا. تعالى النقر على الآلات الكاتبة في الغرفة الفارغة، بينما خيَّم الظلام على الأروقة والمكاتب من حولهما. أحبت صوفيا بتروفنا هذه الأمسيات. بعد إنهاء عملها، وقبل أن تخرج من الغرفة المضيئة إلى الرواق المظلم، تتحدث مع ناتاشا طويلًا بالقرب من الآلتين الكاتبتين. لا تتحدث ناتاشا إلا قليلًا، لكنها مستمعة رائعة. تسأل صوفيا بتروفنا: هل لاحظتِ أن أظافر آنا جريجوريفنا (رئيسة النقابة العمالية المحلية) متسخة دائِمًا؟ ترتدي أيضًا حجرًا كريمًا على صدرها.

يجدر بها أن تغسل يديها جيدًا بدلًا من ذلك. إيرنا سيميونوفنا تثير أعصابي بدرجة سيئة جدًّا. إنها وقحة. هل لاحظتِ يا ناتاشا أن آنا جريجوريفنا تتحدث دائمًا بسخرية عن سكرتير الحزب؟ إنها لا تحبه.

بعد التحدث عن رئيسة النقابة العمالية المحلية وسكرتير الحزب تحكي صوفيا بتروفنا لناتاشا حكايتها مع فيودور إيفانوفيتش، وكيف وقع كوليا تحت الحوض عندما كان عمره ستة أشهر وحسب. تحكي لها عن كم كان كوليا صبيًّا صالحًا وكيف يجتمع حوله كل من في الشارع، وكيف ألبسوه ثيابًا بيضاء كاملة؛ رداءً خارجيًّا أبيض بلا كُمَّين، وقبعة بيضاء. أما ناتاشا، بطريقة ما لا يكون لديها ما تتحدث عنه؛ ليست لديها حكاية واحدة لتحكيها. تقول صوفيا بتروفنا في نفسها: «بالطبع مع وجه بهذا اللون يصعب أن...». لم يكن هناك شيء في حياة ناتاشا سوى المصاعب. مات أبوها العقيد في الجيش في عام 1917 ([6]) نتيجة أزمة قلبية. كانت ناتاشا حينها في الخامسة فقط من العمر. انتزعوا المنزل من أمها، وأجبروهما على الإنتقال للعيش مع امرأة مقعدة من أقاربهما. كانت أمها امرأة مدللة ضعيفة. جاعتا بقسوة، وبدأت ناتاشا العمل منذ الخامسة عشرة. بقيت الآن ناتاشا وحيدة تمامًا. ماتت أمها في العام قبل السابق بالسل، وكذلك ماتت قريبتها من الشيخوخة. تعاطفت ناتاشا مع السلطة السوفييتية، لكن عندما قدمت طلبًا للالتحاق بالكومسمول ([7]) لم يقبلوها. قالت ناتاشا عابسة: «كان والدي عقيدًا في الجيش ومالكًا لمنزل، وكما ترين لم يثقوا بإمكانية أن أتعاطف مع السلطة السوفييتية بصدق. ربما يكون هذا صحيحًا من وجهة النظر الماركسية».

في كل مرة تحكي عن هذا الرفض يحمر جفناها، وسرعان ما تُغيِّر صوفيا بتروفنا موضوع الحديث بنجاح.

حل اليوم الموعود. علقوا صور لينين وستالين على أطر جديدة جلبها سكرتير الحزب بنفسه، كما غطوا مكتب المدير بقماش أحمر. تألَّف الضيوف الموسكوفيون من رجلين ممتلئين ارتديا بدلتين مصنوعتين في الخارج، وربطتي عنق كذلك من الخارج، وأقلام حبر في جيوبهم العلوية من الخارج أيضًا. جلسا إلى الطاولة بجانب المدير أسفل صورتي لينين وستالين، وأخرجا الأوراق من حقيبتين مكدستين مصنوعتين في الخارج. أما سكرتير الحزب، فقد بدا في سترته ذات الياقة المنحرفة ([8]) وبدلته تافهًا إلى جانب المسؤولين الموسكوفيين. واصل سكرتير الحزب هرولته هنا وهناك، وبصحبة عاملة المصعد ماريا إيفانوفنا حمل صواني الشاي والشطائر والفواكه، وقدماها للضيوف والمدير، ثم لجميع الحاضرين.

لم تقوَ صوفيا بتروفنا حتى على سماع الحديث الدائر من فرط اضطرابها. نظرت أمامها مفتونة، ولم ترفع نظرها عن المياه المتأرجحة في الإبريق. اقتربت من الطاولة بأمر سكرتير الحزب، ورفعت وجهها في البداية صوب المدير والضيوف، ثم استدارت، ثم وقفت بزاوية ووضعت يديها على جانبيها كما علموها وهي طفلة حينما تتلو أبياتًا شعرية فرنسية للتهنئة. قالت بصوت مرتعش: «باسم العاملين غير الحزبيين...»، ثم واصلت خطبتها عن ضرورة زيادة إنتاجية العمل، وتلت كل ما أعدته سابقًا مع ناتاشا جهرًا.

بعد أن عادت إلى المنزل ظلت فترة طويلة في انتظار كوليا قبل أن تذهب إلى فراشها حتى تحكي له عن الإجتماع. كان كوليا يجتاز اختباراته المدرسية الأخيرة ويقضي كل مساء عند صديقه المفضل أليك فينكليشتين، حيث يذاكران معًا. انشغلت صوفيا بتروفنا بترتيب الغرفة، ثم خرجت إلى المطبخ لتوقد بابور الجاز (البريموس). قالت لزوجة جندي الميليشيا ([9]) الطيبة التي كانت تغسل الأواني في المطبخ: «كم أشعر بالأسف عليكِ لأنكِ لا تعملين! الوظيفة تمدك بخبرات كثيرة جدًّا في الحياة، خاصةً إذا تعلقت الوظيفة بالأدب».

وصل كوليا جائعًا وثيابه مبتلة تمامًا من المطر الخريفي المنهمر، وسرعان ما وضعت صوفيا بتروفنا أمامه طبقًا من حساء الملفوف. استندت بمرفقيها إلى الطاولة، تراقب كوليا وهو يأكل، وقبل أن تحكي له عن خطبتها قال لها: «أتعرفين يا ماما؟ لقد صرت الآن عضوًا في الكومسمول. لقد قبلتني الإدارة اليوم». ما إن أخبرها بهذا النبأ حتى انتقل إلى موضوع آخر فورًا، وقال وفمه ممتلئ عن آخره بالخبز إن مشاجرة قد شبَّت في المدرسة: «ساشكا يرتسيف... هذا النذل المناصر للنظام القديم...»، وهنا قاطعته صوفيا بتروفنا قائلة: «كوليا، لا أحب أن أسمع منك سبابًا». أكمل حديثه: «حسنًا، ليس هذا هو المهم. لقد نعت ساشكا يرتسيف أليك فينكليشتين باليهودي. قررنا أن نعقد محاكمة صغيرة ينظمها الرفاق. أتعرفين من الذي عينوه مدعيًّا عامًّا في هذه المحاكمة؟ أنا!».

نام كوليا بعد أن أنهى عشاءه، واستلقت صوفيا بتروفنا هي الأخرى خلف الستار ([10])، وقرأ لها كوليا بعضًا من أشعار مایاكوفسكي، وقال: «أليس عبقريًّا حقًّا يا ماما؟»، وعندما أنهى قراءته حكت له صوفيا بتروفنا عن الإجتماع. «أنتِ ماهرة حقًّا يا ماما»، قال لها كوليا ذلك ونام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-3-

أنهى كوليا مدرسته، وحل الصيف الخانق، ولم تنل صوفيا حتى الآن عطلة. أخيرًا منحوها عطلة في نهاية يوليو. لم تنوِ أن تذهب إلى أي مكان في العطلة، لكنها ظلت تحلم طوال شهر يوليو بقوة بالوقت الذي سيُتاح لها فيه أن تنام بقدر ما تشاء، وكيف ستتولى مجددًا كل الأعمال المنزلية التي لم تستطع طوال الفترة السابقة أن تنهيها بسبب عملها الوظيفي. حلمت بالراحة من نقر الآلات الكاتبة، وأن تجد لكوليا معطفًا خفيفًا، وأن تستطيع أخيرًا زيارة المقابر واستدعاء الدهَّان ليطلي الباب مجددًا. ها قد حلت العطلة أخيرًا، وتبين أن الراحة ليست ممتعة إلا في اليوم الأول وحسب. وجدت صوفيا بتروفنا نفسها تستيقظ في قرابة الثامنة على أقصى تقدير، بسبب اعتيادها على الاستيقاظ مبكرًا من أجل العمل، وطلى الدهَّان الباب في غضون نصف ساعة، وكانت مقبرة فيودور إيفانوفيتش في أفضل حال، كما استطاعت شراء المعطف سريعًا، وأصلحت الجوارب في مساءين وحسب. امتدت أيام طويلة فارغة واقترنت بتكتكات الساعة والأحاديث الدائرة في المطبخ وانتظار كوليا على الغداء. الآن يقضي كوليا أيامًا كاملة في المكتبة بصحبة أليك استعدادًا للالتحاق بالتعليم العالي؛ أراد الالتحاق بمعهد الهندسة، ولم تره صوفيا بتروفنا تقريبًا طوال هذه الفترة. أحيانًا تزورها ناتاشا فرولينكو المنهكة، فقد حلت محل صوفيا بتروفنا في العمل في أثناء غيابها، واعتادت صوفيا بتروفنا أن تسألها بشغف عن سكرتير المدير وعن الجدال الدائر بين رئيسة النقابة العمالية المحلية وسكرتير الحزب، وعن الأخطاء الإملائية التي ترتكبها إيرنا سيميونوفنا. كما سألتها عن المناقشة التي دارت في مكتب المدير عن رواية هذا الكاتب الحساس. اجتمع فريق التحرير كله. صفقت صوفيا بتروفنا بيديها قائلةً: «أيمكن ألا تروق لهم؟ إنها تتضمن وصفًا جميلًا للحب الأول النقي، مثلما كان الحب بيني وبين فيودور إيفانوفيتش».

وافقتْ صوفيا بتروفنا كوليا تمامًا حينما شرح لها ضرورة أن تقوم المرأة بعمل إجتماعي مفيد. بدا لها كل ما قاله كوليا، وكل ما يُكتب في الصحف طبيعيًّا تمامًا الآن، كما لو أن هذا ما يُكتب ويُقال دائمًا. الأمر الوحيد الذي أعربت صوفيا بتروفنا عن أسفها الشديد عليه عندما كبر كوليا هو شقتهما السابقة. في بداية الثورة انضم إليهم فيها أناس آخرون في أثناء المجاعة. شغلت غرفة مكتب فيودور إيفانوفيتش السابقة أسرة أحد رجال الميليشيا ويُدعى ديجتيارينكو، أما غرفة تناول الطعام فشغلتها أسرة أحد المحاسبين، وأقامت صوفيا بتروفنا بصحبة كوليا ومربيته في غرفة أخرى. الآن كبر كوليا، وصار في حاجة إلى غرفة مستقلة، فلم يعد طفلًا. «ولكن هل من العدل يا ماما أن يعيش ديجتيارينكو وأسرته في القبو، بينما نعيش في شقة فاخرة؟

هل هذا عادل؟ قولي لي!». هكذا سألها كوليا بصرامة، موضحًا لصوفيا بتروفنا المفهوم الثوري حول عملية تحويل الشقق البرجوازية إلى شقق مشتركة. وجدت صوفيا بتروفنا نفسها مضطرة إلى الإتفاق معه، فهذا الإجراء لم يكن فِعلًا عادلًا. لكنها تشعر بالأسف وحسب بسبب زوجة ديجتيارينكو هذه الجلفة، حتى في الرواق يمكن للمرء أن يشم الرائحة الحامضة التي تأتي من غرفتها. إنها تخشى فتح مصراعي النافذة خوفها من النار. بالرغم من أن ابنيها التوأم قد بلغا بالفعل السادسة عشرة، فإنهما ما زالا يرتكبان الأخطاء الإملائية. إلا أن منزلة جديدة نالتها صوفيا بتروفنا واستها على ضياع الشقة، لقد انتخبها السكان جميعًا مديرة للشقة. صارت إذن في وضع صاحبة الشقة ومسؤولة عنها. وجَّهت ملاحظات لزوجة المحاسب برفق ولكن بإلحاح فيما يتعلق بصناديقها الموجودة في الرواق. حسبت أيضًا المبلغ المستحق على كل واحد لسداد فاتورة الكهرباء بدقة شديدة، وجمعت من كل العاملين رسوم العضوية النقابية. اعتادت أن تحضر بانتظام اجتماعات ممثلي الشقق في إتحاد الشقق التعاونية للإسكان والتأجير، والتفضل بإبلاغ السكان بتعليمات مدير البناية. كانت علاقتها بشكل عام بالسكان جيدة. إذا أعدت زوجة ديجتيارينكو مربى فواكه، تستدعي حتمًا صوفيا بتروفنا إلى المطبخ لتذوقها: «هل مقدار السكر ملائم؟». تذهب زوجة ديجتيارينكو كثيرًا إلى غرفة صوفيا بتروفنا لتستشير كوليا فيما يمكن أن تفعله حتى لا يبقى ابناها التوأم لعام ثانٍ في الصف الدراسي ذاته، كما تثرثر مع صوفيا بتروفنا عن زوجة المحاسب التي تعمل ممرضة. تقول: «لو حدث وسقطتِ تحت رحمة هذه الممرضة في المستشفى فسترسلكِ لا محالة إلى العالم الآخر!».

كان المحاسب نفسه رجلًا مسنًّا ذا وجنتين مترهلتين، تبرز عروقه الزرقاء على يديه وأنفه. كان مرتعبًا دائمًا من زوجته وابنته، ولا يُسمع له صوت في الشقة كلها. أما ابنته فاليا الضاربة إلى الحمرة، فقد اعتادت إزعاج صوفيا بتروفنا بعبارات صغيرة مثل: «لماذا أدفع؟ ما المقابل؟»، «لا أبالي بذلك على الإطلاق»، بينما اتسمت والدتها - زوجة المحاسب - بشخصية مريعة. تقف بوجه جامد بالقرب من بابور الجاز (البريموس) وتناكد زوجة جندي الميليشيا بسبب موقدها المدخن أو تناكد التوأم الوديع على عدم إغلاقهما الباب جيدًا. انحدرت من طبقة النبلاء، ترش الكولونيا في الرواق بواسطة مِرذاذ، وترتدي سلسلة تحمل حلية، وتتحدث بصوت هادئ، تكاد شفتاها لا تتحركان تقريبًا، لكنها تستخدم كلمات فظة بدرجة مذهلة. عندما يحين يوم السداد تبدأ فاليا في استعطاف أمها لتعطيها مالًا تشتري به حذاءً جديدًا. تجيبها الأم بصوت معتدل: «لا تفكري حتى في ذلك أيتها الفَرَسَة»، وتنجح صوفيا بتروفنا في التواري داخل الحمام حتى لا تسمع بقية الحوار، لكن سرعان ما تهرع فانيا

إلى الحمام لتغسل وجهها المنتفخ والباكي وتطلق كل الشتائم التي لم تستطع أن توجهها لأمها وجهًا لوجه.

لكن بوجه عام كانت الشقة المشتركة رقم 46 هادئة ولطيفة، وليست مثل الشقة رقم 52 حيث تدور معارك حقيقية كل ستة أيام تقريبًا، عشية العطلة الأسبوعية. لقد استدعوا إلى هناك ديجتيارينكو الناعس بعد أداء نوبة عمله ليضع نظامًا لحل المشكلة بصحبة البوَّاب ومدير البناية.

مرت العطلة بوتيرة رتيبة، بين المطبخ والغرفة، وأخيرًا انتهت؛ الأمر الذي أبهج صوفيا بتروفنا. تساقطت الأمطار كثيرًا، وابتلت الأوراق الصفراء المتساقطة بالقرب من الحديقة الصيفية، ودهستها الأحذية في الوحل، وعادت صوفيا بتروفنا للذهاب كل يوم إلى عملها، مرتدية الكلوش ([11])، وحاملة المظلة، تنتظر الترام في كل صباح، وفي العاشرة تقريبًا تتنهد بارتياح وتعلق رقم حضورها على اللوح الخشبي الخاص بتسجيل الحضور. عادت لتسمع مجددًا أصوات النقر على الآلات الكاتبة من حولها وتفقيع الأوراق وطرق الأبواب وفتحها وغلقها، وعادت صوفيا بتروفنا لتسلِّم سكرتيرة المدير العجوز بوقار أوراقًا مطوية ومصفوفة بعناية تفوح منها رائحة ورق الكربون. اعتادت أن تلصق الطوابع على كتيبات العضوية النقابية وحضور جلسات اللجنة العمالية المحلية لمناقشة مسائل تعزيز الانضباط العمالي وما يتعلق بأي سلوك غير ملائم من قِبل إحدى الكاتبات تجاه إحدى الساعيات. عادت لتشعر بالخوف من سكرتير الحزب الأعرج تيموفييف، وكعادتها أيضًا لم تشعر بالحب تجاه رئيسة النقابة العمالية المحلية بأظافرها القذرة، وهامت سرًّا بالمدير وحسدت سكرتيرته، لكنها جميعًا كانت شخصيات مألوفة لها، وشعرت أنها في مكانها، ولم تعد تشعر بالإحراج من الإدلاء بأي ملاحظات لإيرنا سيميونوفنا الوقحة. لماذا يُبقون عليها؟ لا بد من مناقشة الأمر مع اللجنة العمالية المحلية.

نجح كوليا وأليك في اختبارات المعهد الهندسي. عندما قرآ اسميهما في سجلات الناجحين، قررا من فرحتهما أن يُركبا جهاز استقبال في الغرفة. لم تحب صوفيا بتروفنا أن يُركِّب كوليا وأليك شيئًا تقنيًّا في غرفتها، لكنها أملت أن تكون تكلفة مثل هذا الراديو أقل من قارب جليدي ([12]). عندما أنهى كوليا مدرسته خطط أن يصنع هذا القارب حتى يمكنه في الشتاء استخدام قاربه الخاص في الخليج الفنلندي. لقد حصل على كتاب عن صناعة هذه القوارب وجمع بعض الألواح الخشبية، وجلبها بمساعدة أليك إلى الغرفة. لم تقتصر الصعوبة على إمكانية تنظيف أرضية الغرفة، بل صارت الحركة في الغرفة نفسها متعذرة. دفعت هذه الألواح طاولة الطعام إلى الحائط، والأريكة إلى النافذة، وشغلت شكل مثلث ضخم على أرضية الغرفة؛ الأمر الذي جعل

صوفيا بتروفنا تتعثر فيها طوال الوقت. لكن كل تضرعاتها إليهما ضاعت سدى، وعبثًا حاولت أن توضح لكوليا وأليك أنها لم تعد تستطيع العيش في الغرفة في ظل هذا الوضع، وأن الأمر يبدو كما لو أنهما قد جلبا فيلًا إلى المنزل. انشغلا في ترتيب الألواح وقياسها والرسم عليها ونشرها حتى وصلا إلى قناعة واضحة تمامًا بأن مؤلف الكُتيب الذي وصف طريقة صنع القارب جاهل، وأن الرسومات التي أوردها لا تؤدي إلى تشييده أبدًا.

حينما توصلا إلى هذه القناعة نشرا قطع الخشب، وحرقاها، وكذلك حرقا الكُتيب بإذعان في الموقد. أما صوفيا بتروفنا فاستغرق منها الأمر أسبوعًا كاملًا لتعيد ترتيب كل الأغراض في الغرفة مجددًا، ولم تستطع طوال هذه المدة أن تبتهج بمساحة الغرفة ونظافتها.

في البداية لم يجلب الراديو لصوفيا بتروفنا أيضًا سوى الإزعاج، فقد شغل كوليا وأليك الغرفة كلها بالسلوك واللوالب الصغيرة والبراغي والأقراص، وظلا يتجادلان كل ليلة حتى الثانية صباحًا حيال أفضلية هذا المحول للطاقة أو ذلك. ثم ركبا جهاز الاستقبال، لكنهما لم يعطيا صوفيا بتروفنا فرصة لتستمع إلى أي شيء حتى النهاية؛ فتارة يودان الإستماع إلى محطة النرويج، وتارة إلى محطة إنجلترا، ثم تملكتهما رغبة قوية في تحسين الراديو، ومن ثم بحثا كل مساء مسألة إعادة تصميم جهاز الاستقبال.

أخيرًا تولت صوفيا زمام الأمر، وتبين لها حينها أن الراديو جهاز ممتع حقًّا. تعلمت كيف تشغله وكيف تطفئه، ومنعت كوليا وأليك من لمسه، وفي الأمسيات استمتعت بالاستماع إلى «فاوست» أو إلى حفلة موسيقية للأوركسترا.

جاءت ناتاشا فرولينكو لتستمع إلى الراديو هي الأخرى. جلبت معها شغل التطريز الخاص بها، وجلست بجوار الطاولة. تمتعت بيدين ماهرتين، وبالقدرة على حياكة الشراشف والياقات بروعة. امتلأت غرفتها كلها عن آخرها بالمطرزات، وبدأت تحوك مفرشًا لصوفيا بتروفنا.

في أيام العطل تُشغِّل صوفيا بتروفنا الراديو من بداية الصباح. أحبت هذا الصوت الذي يبدو واثقًا بنفسه ومهمًّا، ويتحدث عن إحضار عدد كبير من العطور والكولونيا إلى محل العطور رقم 4، أو يتحدث عن أن أوبرينًا جديدًا سوف يُعرض في غضون أيام. لم يكن بإمكانها أن تتمالك نفسها، وفي كل فرصة تُدون كل أرقام الهاتف المذكورة. الأمر الوحيد الذي لم يُثِر اهتمامها بتاتًا هو الأخبار الأخيرة عن الوضع الدولي. لم يَكُف كوليا عن أن يحكي لها بانفعال عن الفاشيين الألمان وعن موسوليني وشيانج كاي شيك ([13]). تستمع إليه بدافع اللياقة وحسب. تجلس على الأريكة كي تقرأ الجريدة، لكنها لا تقرأ

سوى أخبار الحوادث وعمود التسلية الصغيرة الذي بعنوان: «في المحكمة»، ودائمًا تغفو حينما تصل إلى الصفحة الرئيسة أو صفحة المراسلات، وتسقط الجريدة على وجهها. لكن هناك ما حاز إعجابها بدرجة أكبر كثيرًا من الجرائد؛ ألا وهو الروايات المترجمة التي تأتي بها ناتاشا من المكتبة مثل «القبعة الخضراء ([14])» و«ثلاثة قلوب ([15])».

كان يوم الثامن من مارس 1934 ([16]) يومًا سعيدًا في حياة صوفيا بتروفنا. في الصباح جلبت لها الساعية سلة مليئة بالورود، ووجدت بطاقة بين الورود مكتوب عليها:

«إلى الرفيقة الكادحة غير الحزبية صوفيا بتروفنا ليباتوفا، تهنئة منا لكِ بيوم الثامن من مارس.

اللجنة الحزبية والنقابة العمالية المحلية»

وضعت الورود على طاولة كوليا تحت الرف الذي يحوي مؤلفات لينين، إلى جانب تمثال نصفي لستالين. شعرت طوال اليوم بالدفء يكتنفها. قررت ألا تلقي الورود عندما تذبل، بل تُجففها وتضعها في كتاب للذكرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

حل العام الثالث لعمل صوفيا بتروفنا. نالت زيادة في راتبها؛ فلم تعد تتلقى 250 روبلًا، بل 375. لا يزال كوليا وأليك يدرسان، لكنهما بدآ يكسبان بالفعل مبالغ لا بأس بها من أحد المكاتب التي يرسمان فيها بعض التصميمات. باقتراب موعد عيد ميلاد صوفيا بتروفنا اشترى كوليا لها طقمًا من ماله الخاص يتضمن إبريق لبن وبراد شاي ووعاء للسكر وثلاثة فناجين. لم تُعجَب صوفيا بتروفنا كثيرًا بالزخرفة التي على الطقم، فقد كانت عبارة عن مربعات حمراء على صفراء. تمنت لو كان الطقم مزخرفًا بأشكال زهور. لكن الخزف كان رقيقًا وجميلًا، فما الذي يهم أكثر من ذلك؟ يكفي أنها هدية من الابن.

صار ابنها وسيمًا، ذا عينين رماديتين، داكن الحاجبين، طويل القامة، واثقًا بنفسه، هادئًا، مرحًا بدرجة لم تكن في أبيه فيودور إيفانوفيتش، حتى في أفضل أعوامه. يبدو دائمًا أنيقًا ونظيفًا ومليئًا بالحيوية على الطريقة العسكرية. تنظر إليه صوفيا بتروفنا برقة وقلق دائم، مبتهجة وخائفة في الآن ذاته من بهجتها به. إنه ابنها الوسيم المعافى، لا يشرب ولا يدخن؛ ابنها المبجل وعضو الكومسمول المستقيم. أليك هو الآخر شاب مهذب وكادح بالطبع، ولكن أين هو من كوليا؟ عمل أبوه بتجليد الكتب في فينيتسا (مدينة أوكرانية - المترجم) وكانت لديه مجموعة كبيرة من الأبناء، وعاشوا في فقر. عاش أليك منذ صغره في لينينجراد مع عمته، ومن الواضح أنها لم تعتنِ به كثيرًا؛ فثيابه مرقعة من عند المرفقين، وحذاؤه بالٍ، وهو نفسه ضعيف البنية، ومتوسط الطول، كما أنه لا يتمتع بالذكاء الذي يتمتع به كوليا.

ثمة فكرة واحدة ظلت تقلق صوفيا بتروفنا باستمرار؛ لقد أتم كوليا بالفعل عشرين عامًا، ولم يحظَ بغرفة مستقلة بعد. ألا يكدر وجودها المستمر في الغرفة حياته الشخصية؟ يبدو أن كوليا قد وقع في حب إحدى الفتيات في المعهد. لقد استجوبت أليك بمهارة: من التي أحبها؟ ما اسمها؟ كم عمرها؟ هل هي جيدة في التعليم؟ من هما والداها؟ لكن أليك تهرب من الإجابة، وبان لها من نظراته أنه غير قادر على إفشاء أسرار صديقه. لم تنجح صوفيا بتروفنا إلا في استخلاص الاسم وحسب: ناتا. لكن بغض النظر عن اسمها، وبغض النظر عما إذا كان هذا حبًّا جادًّا أم مجرد انجذاب، يحتاج الشاب في مثل هذا العمر إلى غرفة مستقلة. باحت صوفيا بتروفنا بقلقها إلى ناتاشا. استمعت ناتاشا صامتة، ثم احمر وجهها وقالت إن هذا صحيح، ولا ريب فيه. كان من الأفضل لنيكولاي ([17]) فيدوروفيتش لو حظي بغرفة مستقلة، ولكن ها هي تعيش بمفردها من دون أم، فماذا حدث؟ لا شيء!

تلعثمت ناتاشا وصمتت، ولم تفهم صوفيا بتروفنا ماذا أرادت أن تقول تحديدًا.

فكرت صوفيا بتروفنا بكل الطرق الممكنة كيف يمكنها أن تُبدِّل بالغرفة الواحدة غرفتين، وبدأت بالفعل في ادخار بعض المال حتى تدفع ثمن إيجار الغرفتين إذا استطاعت. لكنها فقدت حميتها فجأة في البحث عن غرفة مستقلة لكوليا، فبناءً على التوزيع الرسمي سيتوجه نيكولاي ليباتوف وألكسندر فينكلشتاين إلى الإدارة الهندسية بمدينة سفيردلوفسك حيث يوجد نقص في المهندسين. عَرَضَ عليهما المعهد الهندسي إمكانية إنهاء الدراسة بالمراسلة. قال كوليا، واضعًا يده الكبيرة على يد صوفيا بتروفنا الصغيرة: «لا تقلقي يا ماما. سأحظى هناك بحياة رائعة بصحبة أليك. لقد وعدونا بغرفة في المدينة الجامعية هناك. سفيردلوفسك ليست بعيدة، وستستطيعين زيارتي بطريقة ما. يمكنك أن ترسلي لنا الطرود».

منذ هذا اليوم، بدأت صوفيا بتروفنا فور عودتها من العمل في ترتيب الثياب الداخلية لكوليا في الكومود وانهمكت في الخياطة والرتق. أرسلت حقيبة فيودور إيفانوفيتش القديمة للإصلاح. اليوم يبدو لها الصباح الربيعي الذي ذهبت فيه بصحبة فيودور إيفانوفيتش لشراء هذه الحقيبة من متجر جمعية الحرس بعيدًا جدًّا، وكأنه غير حقيقي من حياة غير حقيقية. تنظر صوفيا بتروفنا كل يوم إلى صفحة من صفحات جريدة النيفا التي لُصِقت على جزء من الجدار التالف، وترى السيدة ذات الفستان مكشوف الكتفين ذي الذيل الطويل، وشعرها مكوم في الأعلى، وتذهلها هذه السيدة. هكذا كانت الصيحة الرائجة في هذا الزمان.

أزعج رحيل كوليا صوفيا بتروفنا وأحزنها، لكن لم يسعها إلا أن تُعجب بالدقة والمهارة اللتين حزمت بهما الكتب والدفاتر الكبيرة التي ملأها بخطه الأنيق، وقد حاك بنفسه بطاقة عضوية الكومسمول الخاصة به في حزامه. تبقى على يوم رحيله أسبوع، ولكن فجأة وجدت صوفيا بتروفنا أنه قد تبقى يوم واحد فقط. سأله أليك فينكلشتاين، وقد أتاه في غرفته صباحًا، بجسده الضئيل ورأسه الكبير وأذنيه البارزتين:

- كوليا، هل أنت مستعد؟

كان قد علق معطفه الجديد على ظهره، وثنى الياقتين. اقترب كوليا بخطوات واسعة من حقيبته ورفعها بيسر كما لو أنها فارغة. ظل يؤرجح الحقيبة طوال الطريق إلى المحطة، بينما يجر أليك المسكين صندوقه بصعوبة، وهو ينفخ ويمسح العرق من على جبهته بكُمَّيه. لقد بدا لصوفيا بتروفنا، بساقيه القصيرتين ورأسه الكبير كائنًا هزليًّا في أحد أفلام الرسوم المتحركة. لم تُكلِّف عمة أليك نفسها عناء الذهاب معه إلى المحطة لتوديعه، وسار ثلاثتهم: كوليا وصوفيا بتروفنا وأليك، بهدوء على رصيف المحطة الرطب. انخرط كوليا وأليك في النقاش بخصوص أي سيارة هي الأمتن والأريح: أهي الفيات أم

الباكارد؟ لم تتذكر صوفيا بتروفنا إلا قبل رحيل القطار بخمس دقائق وحسب أنها لم تقل شيئًا على الإطلاق للصبيين عن السرقات التي يمكن أن يتعرضا لها في الطريق، ولا عن عاملات الغسيل. أرادت أن تقول لهما إنه عند تسليم الثياب الداخلية للغسيل يجب عدها وتسجيلها على الفور. لا يجب أيضًا تحت أي ظرف من الظروف أن يتناولا سلطة الفينيجريت ([18])، لأنها تكون غالبًا متبقية من اليوم الماضي وغير طازجة، ويمكن بسهولة أن تصيب من يأكلها بالتيفوس. تنحت بأليك جانبًا، وأمسكته من كتفه وقالت:

- عزيزي أليك، فلتعتنِ بكوليا يا عزيزي.

نظر أليك إليها بعينين طيبتين من خلف نظارته وقال:

- وهل يصعب عليَّ ذلك؟ سوف أعتني بالطبع بنيكولاي. لا تقلقي.

حل موعد ركوب القطار. بمرور دقيقة ظهر كوليا وأليك من نافذة العربة. بدا كوليا طويلًا وأليك يصل إلى مستوى كتفه. قال كوليا شيئًا ما لصوفيا بتروفنا، لكنه لم يصلها من خلف الزجاج. ضحك، وخلع قبعته ونظر إلى مقصورة القطار سعيدًا ومتحمسًا. أشار أليك لصوفيا بتروفنا بعلامة كلمة «لا...». فهمت مقصده ولوحت له بذراعها وقد أدركت أنه يقصد «لا تقلقي»، وهي تقول في نفسها: «يا إلهي! لا يزالان طفلين، وها هما راحلان».

بمرور دقيقة سارت على طول الرصيف عائدةً وحدها وسط حشود الناس، وازدادت خطواتها سرعة أكثر فأكثر، من دون أن ترى الطريق جيدًا وهي تجفف دموعها بأصابعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

بعد رحيل كوليا لم تعد صوفيا بتروفنا تقضي في المنزل سوى وقت ضئيل للغاية. كانت هناك ساعات عمل إضافية دائمًا، وعملت هذه الساعات الإضافية كل يوم تقريبًا، وقد واصلت ادخار المال من أجل شراء بدلة لكوليا، فالمهندس الشاب لا بد أن يرتدي ثيابًا أنيقة.

في الأمسيات التي تجد فيها أوقات فراغ تدعو ناتاشا لشرب الشاي عندها. تذهبان معًا إلى أحد المطاعم في الزاوية وتختاران كعكتين، ثم تعودان إلى الغرفة، وتضع صوفيا بتروفنا الشاي في إناء الشاي ذي المربعات، وتُشغِّل الراديو. تتناول ناتاشا شغل التطريز الخاص بها. في الفترة الأخيرة بدأت تشرب الجعة، آخذةً بنصيحة صوفيا بتروفنا، لكن لون وجهها لم يتحسن.

في إحدى هذه الأمسيات، وحينما أوشكت على العودة إلى منزلها من عند صوفيا بتروفنا، طلبت ناتاشا منها فجأة أن تعطيها أحدث صورة لديها لكوليا. فسَّرت الطلب لصوفيا قائلة:

- الصورة الوحيدة التي لدي في الغرفة هي صورة أمي.

أهدتها صوفيا بتروفنا صورة لكوليا بدا فيها جميلًا ذا عينين واسعتين، يرتدي ربطة عنق وياقتين. إلتقط المصور إبتسامة رائعة له في الصورة.

ذات مرة، في أثناء عودتهما من العمل، عرجتا على السينما، ومن هذا اليوم صارت السينما متعتهما المفضلة. أعجبتهما الأفلام التي عن الطيارين وحرس الحدود. بدا الطيارون ذوو الأسنان البيضاء الذين حققوا المآثر لصوفيا بتروفنا أشبه بكوليا. أعجبتها الأغنيات الجديدة التي تتردد من خلف الشاشة، خاصةً أغنية: «شكرًا لك يا قلبي»، و«فلتكن بطلًا إذا دعتك الدولة»، وأعجبتها أيضًا كلمة «الوطن». صارت تشعر بالعذوبة والمهابة في نفسها عندما ترى هذه الكلمة مكتوبة بحروف كبيرة. وعندما يسقط أفضل الطيارين أو أكثر قوات حرس الحدود شجاعةً على ظهره، مصابًا بنيران العدو، تُمسك صوفيا بتروفنا بيد ناتاشا، كما اعتادت في أيام شبابها أن تمسك بيد فيودور إيفانوفيتش عندما تخرج فيرا خولودنايا ([19]) فجأة مسدسًا نسائيًّا صغيرًا من كُمها الواسع، وترفعه ببطء وتُصوِّب إلى وجه الوغد.

قدَّمت ناتاشا طلبًا مجددًا للانضمام إلى الكومسمول، ورفضوها مرةً أخرى. تأثرت صوفيا بتروفنا بشدة بحزن ناتاشا؛ الفتاة المسكينة في حاجة إلى الإنضمام إلى جماعة. لماذا لا يقبلونها؟ الفتاة كادحة ومخلصة تمامًا للسلطة السوفييتية. إنها تعمل بشكل رائع أفضل من بقية الفتيات مائة مرة. علاوة على ذلك هي مثقفة سياسيًّا. إنها ليست مثلي، فلا تُفوِّت يومًا من دون أن

تقرأ جريدة «برافدا» من الألف إلى الياء. إنها تفهم كل شيء، بداية من الوضع الدولي وحتى مواقع بناء الخطة الخمسية بدرجة لا تقل عن فهم كوليا وأليك. كم اضطربت عندما تهاوى الثلج تحت تشيليوسكين ([20]) حتى إنها ظلت ملاصقة للراديو! اعتادت أن تقتطع من الصحف كافة صور الكابتن فورونين ([21]) ومعسكر شميت ثم معسكر الطيارين. عندما أذاعوا الأخبار عن أول الناجين، بكت وهي تعمل على آلتها الكاتبة، وتساقطت دموعها على الورق، وأفسدت ورقتين من فرط الفرح. ظلت تكرر وهي تجفف دموعها: «لن يدعوا الناس تهلك». كم هي فتاة طيبة ومخلصة! لكنهم رفضوا مجددًا انضمامها إلى الكومسمول. هذا ظلم. كتبت صوفيا بتروفنا لكوليا عن هذا الظلم الذي تعرضت له ناتاشا. لكن كوليا أجابها بأن الظلم هو مفهوم طبقي، ولا بد من الحذر، فناتاشا على أي حال من أسرة برجوازية لأحد المُلّاك، وإلى هذه اللحظة لم يتم اجتثاث الفاشيين المأجورين الذين قتلوا الفريق كيروف من جميع أنحاء البلاد بعد. المعارك الطبقية مستمرة، ومن ثم يجب التحلي بقدر كبير من الصرامة في اختيار المنضمين إلى الحزب والكومسمول. كتب كوليا أيضًا أنه بمرور بضعة أعوام سيقبلون ناتاشا لا محالة، ونصحها بشدة بتلخيص أعمال لينين وستالين وماركس وإنجلز.

- بمرور بضعة أعوام! (ابتسمت ناتاشا بمرارة) ينسى نيكولاي فيدوروفيتش أني سوف أبلغ سريعًا الرابعة والعشرين.

واستها صوفيا قائلةً:

- سوف يقبلونكِ إذن في الحزب. وما المشكلة في أنكِ ستبلغين سريعًا الرابعة والعشرين؟ إنكِ في أول شبابك.

لم تُجِب ناتاشا بشيء، ولكن قبل أن تعود إلى منزلها أخذت من صوفيا بتروفنا أحد كتب لينين التي لكوليا.

وصلت رسائل كوليا بانتظام؛ مرة كل أسبوع، عشية يوم العطلة. «كم هو ابن رائع! لا ينسى أن ماما تقلق عليه بالرغم من مشاغله الكثيرة». بعودة صوفيا بتروفنا من عملها، وهي لا تزال عند درجات السلم السفلية، تخرج المفتاح من حقيبتها، وتصعد الدرجات سريعًا، وتصل إلى الطابق الرابع، وتفتح صندوق البريد الأزرق لاهثة. الخطاب في الظرف الأصفر في انتظارها. قبل أن تخلع معطفها تجلس عند النافذة سريعًا وتفض الخطاب: «مرحبًا يا ماما»، هكذا يبدأ كل خطاب. «آمل أن تكوني بصحة جيدة. أنا أيضًا بصحة جيدة. لقد وصلت الإنتاجية في مصنعنا في الأسبوع الأخير إلى...». كانت الخطابات طويلة، لكنها كلها عن المصنع ونمو الحركة الستاخانوفية ([22])، ولا تتضمن كلمة واحدة عنه وعن حياته. كتب كوليا في خطابه الأول: «ضعي فقط في اعتبارك

أن كل التروس والسكاكات مستوردة من الخارج، ونحن ندفع للرأسماليين ذهبًا مقابل كل شيء، ولا يمكننا حتى الآن أن نصنع هذه الأشياء بأنفسنا». لكن صوفيا بتروفنا لا تهتم بالسكاكات. لقد ودت لو تعرف ماذا يطعمونه هناك هو وأليك، وهل العاملة المسؤولة عن الغسيل هناك طيبة أم لا. هل يكفيه المال هناك؟ متى يجدان الوقت للمذاكرة؟ أيذاكران ليلًا؟ لم يُجِب كوليا عن كل هذه الأسئلة إلا بصورة سطحية تمامًا وبعبارات غير مفهومة جيدًا. ودت صوفيا بتروفنا لو استطاعت أن تتصور غرفتهما وحياتهما وطعامهما، وبناءً على نصيحة ناتاشا كتبت خطابًا لأليك يتضمن هذه الأسئلة.

وصلها الرد في غضون بضعة أيام. كتب أليك:

«المبجلة صوفيا بتروفنا، اعذريني على جرأتي، لكنكِ عبئًا تقلقين بخصوص صحة نيكولاي. الطعام هنا لا بأس به على الإطلاق. أشتري النقانق في المساء، وأقليها بنفسي في السمن. نتناول الغداء في المطعم، وهو يتكون من ثلاثة أطباق ولا بأس به على الإطلاق. قررنا ألا نأكل من المربى التي أرسلتها لنا إلا مع شاي المساء، وبهذه الطريقة ستكفينا لفترة طويلة. أتولى إرسال الثياب الداخلية للغسيل، وأحسبها جيدًا. خصصنا أيضًا ساعات خاصة للدراسة كل يوم. يمكنك أن تصدقيني تمامًا حينما أقول لكِ إني أفعل كل شيء من أجل نيكولاي بوصفي صديقًا ورفيقًا له، وسأحاول الاستمرار في ذلك».

انتهى الخطاب على النحو التالي:

«يُطوِّر نيكولاي بنجاح طريقة لإنتاج المكابس للرفاق الأعزاء في إدارتنا. يقولون عنه في اللجنة الحزبية في المصنع إنه النسر المشرق للمستقبل».

الشمس بالطبع هي التي تشرق لا النسر، ولم تفهم صوفيا بتروفنا تمامًا ما المقصود بإنتاج المكابس للرفاق الأعزاء، ومع ذلك ملأت هذه السطور قلبها بالفخر والإعجاب.

تطوي صوفيا بتروفنا خطابات كوليا بعناية في صندوق مخصص لحفظ الورق. احتفظت في هذا الصندوق بخطابات عريسها فيودور إيفانوفيتش وصور كوليا الصغير وصورة للطفلة كارينا التي ولدت في الخارج على متن تشيليوسكين ([23]). في هذا الصندوق وضعت صوفيا بتروفنا خطاب أليك. لقد شعرت برقة أليك. لا شك في إخلاصه لكوليا وقدرته على فهمه.

ذات مرة، وبعد مرور عشرة أشهر من رحيل كوليا، تلقت صوفيا بتروفنا صندوقًا خشبيًّا فخمًا بالبريد من سفيردلوفسك؛ من كوليا. كان الصندوق ثقيلًا حتى إن ساعي البريد حمله بصعوبة إلى الغرفة، وطلب بقشيشًا يُقدَّر بروبل.

تساءلت صوفيا بتروفنا في نفسها: «أتكون ماكينة خياطة؟ ليتها تكون كذلك». لقد باعت ماكينتها في الأعوام الصعبة. رحل ساعي البريد. تناولت صوفيا بتروفنا المدق والسكين وفتحت الصندوق. لاح في الصندوق شيء صلب أسود مجهول، وقد تمت تغطيته بعناية بنشارة الخشب. هذا الشيء ليس عجلة ولا أنبوبة. أخيرًا وجدت صوفيا بتروفنا على الظهر الأسود لهذا الشيء بطاقة مكتوب عليها بخط كوليا: «أمي العزيزة، أُرسل إليكِ العجلة المسننة الأولى التي صنعها الرفاق في مصنعنا وفقًا للطريقة التي ابتكرتها». ابتسمت صوفيا بتروفنا وملست على ظهر العجلة المسننة، وحملتها إلى حافة النافذة. في كل مرة تنظر إليها تشعر بالسرور.

بمرور بضعة أيام، وبعد أن أنهت صوفيا بتروفنا شاي الصباح لتسرع إلى العمل، وجدت ناتاشا تهرع إلى غرفتها فجأة، وشعرها أشعث ومبلل بالثلج، وأحد جراميقها مفكوك ([24]). قدَّمت لصوفيا بتروفنا جريدة مبللة قائلة:

- انظري، لقد اشتريتها حالًا من البائع عند الزاوية. كنت أقرأ ببساطة وفجأة رأيت نيكولاي فيدوروفيتش، كوليا!

رأت صوفيا بتروفنا في الصفحة الأولى من جريدة الـ«برافدا» وجه كوليا المبتسم الطيب. بدا في الصورة مختلفًا كثيرًا، فقد أضفت عليه الصورة ملامح الكِبَر، ولكنه ابنها كوليا بلا أي شك. كتبوا تحت صورته:

«المتحمس للإنتاج، الكومسمولي نيكولاي ليباتوف الذي طوَّر طريقة لإعداد المكابس في مصنع إنتاج الآلات بالأورال».

عانقت ناتاشا صوفيا بتروفنا وقبَّلتها على وجنتها قائلةً بتوسل: «آه يا عزيزتي صوفيا بتروفنا! أرجوك ابعثي له برقية».

لم ترَ صوفيا بتروفنا ناتاشا بهذه الحماسة قَط. لقد وصل بها الأمر إلى ارتعاش اليدين، ولم تستطع أن تجد حقيبتها. كتبتا البرقية في العمل في أثناء استراحة الغداء، وأرسلتاها بعد العمل. هنَّأ الجميع في العمل صوفيا بتروفنا بهذا الابن الرائع، حتى إيرنا سيميونوفنا هنأتها، وفي المنزل هنأها الجميع أيضًا، حتى الممرضة هنأتها. في المساء، عندما استلقت على الفراش، سعيدة ومنهكة، فكرت صوفيا بتروفنا للمرة الأولى في أن ناتاشا لا بد أنها واقعة في غرام كوليا. كيف لم تلحظ ذلك من قبل؟ إنها فتاة رائعة ومهذبة وكادحة، ولكن المشكلة الوحيدة هي أنها ليست جميلة، كما أنها تكبره عمرًا. حاولت صوفيا بتروفنا وهي توشك على النوم أن تتخيل هذه الفتاة التي سيحبها كوليا وستصير زوجته؛ ستكون فتاة طويلة يانعة، وردية البشرة، ذات عينين ناصعتين وشعر أشقر، وستشبه جدًّا الإنجليزية المرسومة على البطاقة

البريدية، مع فارق وحيد؛ أنها ستحمل على صدرها علامة الكيم ([25])، أستكون ناتاشا؟ لا. من الأفضل أن تُدعى سفيتلانا، لا بل لودميلا أو ميلتوشكا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

اقترب عام جديد؛ 1937. اتخذت النقابة العمالية المحلية قرارًا بتجهيز شجرة العيد من أجل أطفال العاملين بدار النشر. عهدوا بتنظيم العطلة إلى صوفيا بتروفنا. اختارت صوفيا بتروفنا ناتاشا معاونة لها، واستغرقتا في العمل معًا. أجْرتا مكالمات تلفونية لشقق العاملين في دار النشر لمعرفة أسماء وأعمار الأطفال، وكتبتا الدعوات على الآلات الكاتبة، وهرعتا إلى المحلات لشراء الحلوى وكعك الزنجبيل والكرات الزجاجية والمفرقعات، وأنهكتا نفسيهما بحثًا عن الثلج الذي يُستخدم في اللعب. كان الأمر الأهم والأصعب هو تقرير أي هدية يجب إهداؤها لكل طفل بطريقة تجعلهما لا تتجاوزان الحد المسموح به للمصاريف، وفي الآن ذاته يشعر الأطفال جميعًا بالرضا. تجادلت صوفيا بتروفنا وناتاشا طويلًا أيضًا بشأن الهدية التي يجب تقديمها لابنة المدير. أرادت صوفيا بتروفنا شراء دمية لها أكبر من بقية الدمى، ووجدت ناتاشا أن هذا سيكون غير ملائم. وصلتا في النهاية إلى إتفاق بشراء آلة نفخ جميلة مزينة بشُرابة زغبية. لم يتبقَّ أمامهما في النهاية سوى شراء الشجرة.

اشترتا شجرة عالية تصل إلى السقف، ذات فروع ضخمة وكثيفة. تولت ناتاشا وصوفيا بتروفنا وعاملة المصعد ماريا إيفانوفنا تزيين الشجرة منذ الصباح الباكر وحتى الثانية بعد الظهر في يوم العيد. سلَّتهما ماريا إيفانوفنا بقصصها عن زوجة المدير، وحكت عن المدير نفسه، واعتادت أن تتحدث عن المدير نفسه بطريقة الأزمان الغابرة: «بضمير الجمع». جلبت عاملة المصعد لناتاشا وصوفيا بتروفنا الكرات والمفرقعات وصناديق البريد والمراكب الفضية، بينما علقت ناتاشا وصوفيا بتروفنا كل ذلك على الشجرة. سرعان ما شعرت صوفيا بتروفنا بالألم في قدميها، وجلست على أحد المقاعد ووضعت في عبوات الحلوى وهي جالسة الكلمات التذكارية: «شكرًا للرفيق ستالين على طفولتنا السعيدة»، بينما واصلت ناتاشا تزيين الشجرة. حظيت ناتاشا بيدين ماهرتين وذوق رفيع. وضعت ديد موروز ([26]) بطريقة جيدة جدًّا. ثم لصقت صوفيا بتروفنا الرأس الصغير المجعد للينين وسط نجمة خماسية حمراء كبيرة، ورفعت ناتاشا النجمة إلى أعلى الشجرة، وتم كل شيء. أزلن من على الحائط صورة ستالين الواقف، واستبدلن بها صورة ستالين جالسًا وفتاة صغيرة على ركبتيه. كانت هذه هي الصورة المفضلة لصوفيا بتروفنا.

حلَّت الساعة الثالثة، وحان موعد العودة إلى المنزل والاستلقاء قليلًا ثم تناول الغداء وتغيير الثياب قبل العيد.

نجحت حفلة العيد نجاحًا عظيمًا. جاء كل الأطفال، وكل الآباء والأمهات تقريبًا. لم تأتِ زوجة المدير، ولكن المدير جاء وجلب معه ابنته الصغيرة الساحرة،

ذات الشعر الأشقر. ابتهج الأطفال بالهدايا، وأشاد الآباء والأمهات بالشجرة كثيرًا. وحدها آنا جريجوريفنا رئيسة النقابة العمالية المحلية استاءت من أنهم أعطوا لابنها طبلًا ولم يعطوه جنودًا من الألومنيوم مثلما أعطوا لابن سكرتير الحزب؛ فالجنود المصنوعون من الألومنيوم أغلى. ارتدت فستانًا أخضر حريريًّا مكشوف الصدر. أطلق ابنها الطويل والنحيل الذي لا يتسم باللطف صفيرًا اعتراضًا على الهدية، وضرب الطبل بقبضته وكسره. أما بقية الصبية فقد شعروا جميعًا بالرضا. ظلت ابنة المدير تصفر في آلة النفخ بلا كلل أو ملل، وهي تقفز بين ركبتي والدها، مستندة بيدها الممتلئة إلى ركبته، ملقية برأسها للخلف حتى ترى شجرة العيد.

شعرت صوفيا بتروفنا بأنها سيدة الحفل فعلًا. شغَّلت الفونوجراف والراديو، وأشارت لعاملة المصعد بإشارة تبين لها إلى من يجب أن تقدم طبق الحلوى. شعرت بالأسف على ناتاشا التي وقفت عند الحائط خجلة، وقد شحب وجهها تمامًا، وقد ارتدت بلوزة أنيقة حاكتها خصوصًا لهذه المناسبة. أما المدير فقد انحنى واصطحب ابنته حول الشجرة وأخافها بديد موروز. نظرت صوفيا بتروفنا بحنان إلى هذا المشهد، لقد أرادت أن يصير كوليا مديرًا مثله. من يعلم، ربما في خلال عامين تصير لديها حفيدة، أو ربما حفيد! سوف تقنع كوليا بأن يسميه فلادلين. كم هو اسم جميل! إذا كانت حفيدة فستقنعه بأن يسميها نينيل، وهو اسم فرنسي أنيق، وفي الآن ذاته هو معكوس اسم لينين.

انهارت صوفيا بتروفنا المنهكة على كرسيها. حان وقت العودة إلى المنزل، وبدأت تشعر بالصداع النصفي. اقترب منها المحاسب الأنيق، انحنى صوبها بلطف وأبلغها خبرًا غريبًا: لقد قبضوا في المدينة على عدد كبير من الأطباء. كان المحاسب على معرفة شخصية بكل أطباء المدينة المرموقين، فلم تستجب الإكزيما التي أُصيب بها لأي علاج عدا علاج الراحل فيودور إيفانوفيتش. نعم، لقد كان هذا طبيبًا حقيقيًّا، بينما وصف البقية أدوية كثيرة ولطخوا جسده بعلاجات كثيرة من دون جدوى. ذكر المحاسب من بين من تم القبض عليهم الطبيب كيباريسوف الذي كان زميلًا لفيودور إيفانوفيتش في العمل، وهو الأب الروحي لكوليا.

- كيف هذا؟ الطبيب كيباريسوف؟ لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا! ماذا حدث؟ هل يمكن أن تكون «مصيبة» أخرى قد حدثت؟

هكذا سألت صوفيا بتروفنا وقد قررت ألا تقول «جريمة قتل» وتستبدل بها «مصيبة». رفع المحاسب عينيه حزنًا ثم انصرف، متسحبًا على أصابع قدميه لسبب ما. منذ عامين، بعد مقتل كيروف ([27])، قبضوا على الكثيرين أيضًا. كم كانت هذه الأيام كئيبة! الحرس يجوبون الشوارع، وعندما ينتظرون الرفيق ستالين تُطوِّق القوات ساحة المحطة وتُغلَق الشوارع والأزقة، ويُمنَع المرور

أو السير! لكنهم بدأوا أولًا بالمعارضين ثم أفراد النظام القديم، ثم كل المتحدرين من طبقات النبلاء. الآن يقبضون على الأطباء. بعد مقتل كيروف نفوا السيدة نيجنيتسيفا بوصفها من طبقة النبلاء، وكانت صديقة قديمة لصوفيا بتروفنا. درستا معًا في الجيمنازيا. صُعِقت صوفيا بتروفنا: ما العلاقة التي يمكن أن تربط نيجنيتسيفا بمقتل كيروف؟ إنها تُدرِّس الفرنسية في إحدى المدارس، وتعيش كما يعيش الجميع. لكن كوليا وضَّح لها ضرورة أن تتطهر لينينجراد من العناصر المشكوك فيها. «ومن هي هذه المدعوة نيجنيتسيفا على أي حال؟ أنتِ تذكرين بنفسك يا ماما أنها لم تعرف من هو مایاكوفسكي، وأنها اعتادت القول إن الأسعار كانت رخيصة في العصر البائد. إنها ليست مواطنة سوفييتية...». حسنًا، ولكن ماذا عن الأطباء؟ ما ذنبهم؟ مجرد التفكير في إيفان إيجناتيفيتش كيباريسوف يذهلها، كم هو طبيب مبجل!

ضج الأطفال في غرفة الملابس. عاونت صوفيا بتروفنا الآباء والأمهات في البحث عن الطِّماق والأحذية، بوصفها سيدة المكان. اقترب المدير، حاملًا ابنته على يديه، ليودعها. شكر النقابة العمالية المحلية على العيد الرائع وقال لها مبتسمًا: «لقد رأيت في الـ«برافدا» صورة ابنك. جيل جديد جيد ينمو في هذه البلاد».

نظرت إليه صوفيا بتروفنا بوله. أرادت أن تقول له إنه لا يحق له بعد التحدث عن الأجيال الجديدة، فماذا تعني خمسة وثلاثين عامًا؟ إنه لا يزال في ريعان الشباب. لكنها لم تستطع قول ذلك. ألبس ابنته بنفسه حذاءها ومعطفها المصنوع من الفرو، وأحاط رأسها بوشاح أبيض زغبي. كم هو ماهر في فعل كل شيء! يمكن للأم أن تترك معه الطفلة وهي مطمئنة تمامًا. إنه رجل أسرة رائع. يمكن للمرء أن يرى ذلك على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

لم تُنشر الصحف شيئًا عن الأطباء بصورة عامة أو عن الطبيب كيباريسوف بصورة خاصة. نوت صوفيا بتروفنا أن تعرج على السيدة كيباريسوفا زوجته، ومع ذلك لم تستطع تنفيذ ذلك. لم يكن لديها وقت، كما أنها شعرت بالإحراج، فهي لم تَزُرها منذ نحو ثلاثة أعوام، فكيف تمر عليها الآن فجأة من دون مناسبة؟

في يناير بدأوا ينشرون في الصحف مقالات عن العملية الجديدة المرتقبة. لقد أثَّرت عمليتا كامينيف وزينوفييف ([28]) تأثيرًا شديدًا على صوفيا بتروفنا، ولكن نظرًا لأنها لم تعتد على قراءة الصحف يوميًّا، لم تتابع أخبارها يومًا بيوم. في هذه المرة جذبتها ناتاشا إلى قراءة الصحيفة، وصارتا تقرآن يوميًّا مع بعضهما كل المقالات المتعلقة بالعملية الجديدة. كثرت الأحاديث من حولهما عن الجواسيس الفاشيين والإرهابيين وعن عمليات القبض على المشبوهين.

لا يمكن للمرء حتى أن يفكر في أن هؤلاء الأوغاد أرادوا قتل العزيز ستالين. تبين أن هؤلاء الأوغاد هم من قتلوا كيروف وهم من وضعوا المتفجرات في المناجم وأخرجوا القطار عن مساره، ولديهم أتباع وأعوان في كل مؤسسة تقريبًا.

حكت إحدى الكاتبات في المكتب فور أن عادت من عطلتها ذات يوم أن مهندسًا شابًّا عاش في الغرفة المجاورة لها، وأنها اعتادت التنزه معه أحيانًا في الحديقة. ذات ليلة جاءت سيارة فجأة عند البناية وقبضوا عليه، وتبين أنه عنصر مُخرِّب. قد يبدو المرء إذن شخصية لائقة تمامًا من ناحية المظهر، ولا يعلم أحد حقيقته.

في بناية صوفيا بتروفنا أيضًا؛ في الشقة المواجهة رقم 45 تحديدًا، قبضوا على شيوعي ما، وشمَّعوا غرفته بالشمع الأحمر. عرفت صوفيا بتروفنا الأمر من مدير المنزل.

ترتدي صوفيا بتروفنا نظارتها في الأمسيات، فقد أُصيبت في الفترة الأخيرة بطول النظر، وتقرأ الصحيفة جهرًا لناتاشا. لقد أنهت ناتاشا حياكة المفرش بالفعل، وبدأت في حياكة غطاء لفراش صوفيا بتروفنا. تحدثتا عن الغضب الذي لا بد وأن يشعر به كوليا الآن. ليس كوليا وحسب، بل وكل الشرفاء. في حقيقة الأمر يمكن أن تكون هذه القطارات التي أُخرِجت عن مسارها قد ضمَّت في داخلها أطفالًا صغارًا. يا للقسوة! إنهم وحوش، ليس عبثًا إذن أن تكون هناك علاقات وثيقة بين التروتسكيين والجيستابو ([29]). في الحقيقة هم ليسوا أفضل من الفاشيين الذين يقتلون الأطفال في إسبانيا ([30]). لكن من

غير الممكن أبدًا أن يشارك الطبيب كيباريسوف في أعمال هذه العصابات. لقد دعوه أكثر من مرة بصحبة فيودور إيفانوفيتش لأخذ مشورتهما الطبية. بعد هذه الاستشارات إعتاد فيودور إيفانوفيتش دعوته لشرب الشاي وقضاء بعض الوقت معًا. رأته صوفيا بتروفنا عن قرب تام، كما ترى ناتاشا بجانبها الآن. والآن يقولون إنه قد انضم إلى هذه العصابات! من يمكنه أن يتصور هذا من هذا العجوز المبجل؟!

ذات مساء، وبعد قراءة لائحة الجرائم التي ارتكبها المجرمون في الجريدة، والاستماع إلى هذه اللائحة مجددًا في الراديو، تصورت صوفيا بتروفنا وناتاشا بوضوح شديد الأيادي والسيقان المبتورة، وأكوام الأشلاء، حتى إن صوفيا بتروفنا شعرت بالهلع من البقاء وحدها في الغرفة، وشعرت ناتاشا بالهلع هي أيضًا من السير وحدها في الشارع. قضت ناتاشا هذه الليلة في غرفة صوفيا بتروفنا على الأريكة.

انعقدت الإجتماعات في كل مكان؛ في كل المؤسسات، وانعقد إجتماع في دار النشر أيضًا للتحدث عن عملية المحاكمات. طافت رئيسة النقابة العمالية المحلية بكل الغرف أولًا وحذَّرت من أنه في حالة أن اتسم أي شخص بالاستهتار وقرر الانصراف قبل الإجتماع فليضع في اعتباره أن الأبواب مغلقة. حضر الجميع الإجتماع بلا استثناء، حتى العاملون بقسم التحرير حضروه، بالرغم من أنهم عادةً يتجاهلون حضور الإجتماعات. ألقى المدير خطبة، ولخص باختصار وجفاف الأخبار التي أوردتها الصحف. تحدث بعده سكرتير الحزب الرفيق تيموفييف. قال في حديثه، الذي توقف فيه بعد كل كلمتين تقريبًا، إن أعداء الشعب يهرعون إلى كل مكان، وإن بوسعهم حتى أن يخترقوا دار النشر هنا، ولذلك على كل العاملين الشرفاء أن يرفعوا درجة يقظتهم السياسية بلا كلل ولا ملل. ثم جاء دور رئيسة النقابة العمالية المحلية آنا جريجوريفنا: «أيها الرفاق»، قالتها وأغلقت عينيها وصمتت لبرهة، ثم أكملت: «أيها الرفاق»، وشبكت أصابعها الرفيعة ذات الأظافر الطويلة. «لقد مد العدو الحقير يده القذرة إلى مؤسستنا». تجمد الجميع. انخفض الحجر الكريم، ثم ارتفع مجددًا على صدر آنا جريجوريفنا وهي تقول: «في الليلة الماضية تم القبض على الرئيس السابق لمطبعتنا الذي اكتشفوا أنه عدو للشعب؛ جيراسيموف. تبين أنه أحد أبناء أخي جيراسيموف الموسكوفي الذي قبضوا عليه منذ شهر مضى. بنوع من الإهمال من جانب منظمتنا الحزبية التي تعاني، على حد التعبير الدقيق للرفيق ستالين، من مرض الإهمال الغبي، واصل جيراسيموف العمل في مطبعتنا، حتى بعد إكتشاف جرم عمه جيراسيموف الموسكوفي».

جلست، وصدرها آخذ في الصعود والهبوط. تساءل المدير الذي ترأس هذا الإجتماع:

- هل من أسئلة؟

سألت ناتاشا بخجل:

- وماذا فعلوا في المطبعة؟

أومأ المدير لرئيسة النقابة العمالية المحلية، فنهضت من على الطاولة وتساءلت بصوت مرتفع:

- أتقولين ماذا فعلوا؟! أظن أني بيَّنت بلغة روسية واضحة أيتها الرفيقة فرولينكو أن رئيس المطبعة السابق جيراسيموف قد تبين أنه ابن أخي جيراسيموف الموسكوفي. كان هناك تواصل يومي مع عمه، وقد دمر الحركة الستاخانوفية في المطبعة، وشوَّش الخطة الإنتاجية بأوامر قريبه وبإهمال جنائي من جانب منظمتنا الحزبية.

لم تسأل ناتاشا المزيد من الأسئلة.

بعد أن عادت صوفيا بتروفنا من الإجتماع إلى المنزل عكفت على كتابة خطاب لكوليا. كتبت له عن إكتشاف أعداء للشعب في المطبعة؛ أعداء في حي أوراملاش، هل يتصور ذلك؟ على كوليا أن يتحلى بالحذر بوصفه كومسموليًّا شريفًا.

تصاعد القلق بصورة تلقائية في دار النشر. ظلوا يستدعون المدير يوميًّا إلى قيادة الحزب في لينينجراد. يدخل سكرتير الحزب بوجه كالح إلى مكتب الآلات الكاتبة. يفتح الباب بالمفتاح الفرنسي الخاص ويستدعي إيرنا سيميونوفنا إلى القسم الخاص. حكى المحاسب المهذب لصوفيا بتروفنا، وكانت المعلومات تصل إليه دائمًا من مصدر ما، أن اللجنة الحزبية تجتمع الآن في كل مساء. قال مبتسمًا إبتسامة خاصة:

- الأعزاء يتشاجرون! آنا جريجوريفنا تلقي كل التهم على عاتق سكرتير الحزب، وهو يفعل الأمر ذاته للمدير. بقدر فهمي للأمر سيكون هناك تغيير في المجلس.

سألت صوفيا بتروفنا:

- أي تهم؟

- لا يمكنهم الإتفاق على من منهم هو المسؤول عن إغفال أمر جيراسيموف.

لم تفهم صوفيا بتروفنا شيئًا بوضوح، وفي هذا اليوم غادرت دار النشر وقد اعتراها نوع من القلق الغامض. في أثناء سيرها في الشارع وجَّهت انتباهها إلى عجوز طويلة القامة ترتدي شالًا فوق قبعتها، كما ترتدي حذاءً لباديًّا طويل العنق، وكالوشًا ([31])، وتمسك عصا في يدها. سارت العجوز متحسسة بالعصا المواضع غير الزلقة. بدا وجهها مألوفًا لصوفيا بتروفنا. إنها السيدة كيباريسوفا! أهي حقًّا؟ يا إلهي! كم تغيرت! نادت صوفيا بتروفنا عليها: «ماريا إيراستوفنا ([32])».

توقفت السيدة كيباريسوفا، ورفعت عينيها السوداوين الكبيرتين، ورسمت على وجهها بجهد شديد إبتسامة ودية.

- مرحبًا يا صوفيا بتروفنا. مر وقت طويل جدًّا منذ أن إلتقينا آخر مرة. لقد كبر ابنك، أليس كذلك؟

وقفت وأمسكت بيد صوفيا بتروفنا، لكن من دون أن تنظر إلى عينيها مباشرةً. أشاحت بعينيها إلى الزاوية في ارتباك.

قالت صوفيا بتروفنا بحرارة:

- ماريا إيراستوفنا. أنا مسرورة بلقائك. سمعت أنكِ تمرين بمصاعب؛ أقصد ما يتعلق بإيفان إيجناتيفيتش. اسمعي: نحن أصدقاء. إيفان إيجناتيفيتش هو الأب الروحي لكوليا. هذا أمر لا يُعوَّل عليه الآن بالطبع ([33]) لكننا من الجيل القديم. أخبريني: هل تهمة إيفان إيجناتيفيتش خطيرة؟ هل هناك أي أساس صلب لهذه التهم؟ لا يمكنني ببساطة أن أصدق الأمر. كم هو طبيب رائع ومبجل! ظل زوجي يحترمه بوصفه طبيبًا مرموقًا.

قالت كيباريسوفا بتجهم:

- لم يفعل إيفان إيجناتيفيتش أي شيء ضد السلطة السوفييتية.

صاحت صوفيا بتروفنا:

- هذا ما قلته. لم أشك للحظة واحدة في ذلك، وهذا ما قلته للجميع.

نظرت كيباريسوفا بكآبة إليها بعينيها الكبيرتين السوداوين. قالت من دون إبتسامة:

- إلى اللقاء يا صوفيا بتروفنا.

- عندما يعود إيفان إيجناتيفيتش فلتدعني إلى تناول فطيرة عندك. لماذا أنتِ منزعجة هكذا؟ ما دام إيفان إيجناتيفيتش غير مذنب، سيكون كل شيء بخير

إذن. لا يمكن في بلادنا أن يصيب إنسان شريف أي مكروه. الأمر ببساطة سوء تفاهم لا أكثر. هيا تشجعي. مُري عليَّ وقتًا ما لنشرب الشاي معًا.

سارت كيباريسوفا على طول الرصيف، وهي تتحسس الطريق أمامها بالعصا.

قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «هل يمكن أن أكون قد هرمت أنا أيضًا هكذا؟ لقد صار وجهها قاتمًا مليئًا بالتجاعيد. لا، لا يمكن أن أكون هكذا. هي من تركت نفسها تصل إلى هذا الشكل: الحذاء اللبادي والعصا والوشاح... من المهم جدًّا للمرأة ألا تدع نفسها تصل إلى هذه الدرجة، وتراقب نفسها جيدًا. لم يعد أحد يرتدي حذاءً لباديًّا الآن. لم أرَ أحدًا يرتديه منذ عام 1918. تبدو الآن في الخامسة والستين، بينما هي في الحقيقة لا تتخطى الخمسين. حسنًا أن كيباريسوف غير مذنب. الأمر مع الناس شيء، ومع الزوجة شيء آخر. هذا ما ظننته؛ الأمر ببساطة سوء تفاهم لا أكثر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

في اليوم التالي أنهى مكتب الآلات الكاتبة بنجاح التقرير نصف السنوي. عرف الجميع أن المدير سوف يأخذ قطار الليل في هذه الليلة إلى موسكو حتى يقدم تقريرًا غدًا عن العمل نصف السنوي لدار النشر إلى قسم الطباعة الخاص باللجنة المركزية للحزب. حثت صوفيا بتروفنا الكاتبات على الإسراع. ظلت ناتاشا تكتب بلا توقف، ولا حتى لاستراحة الغداء.

في الثالثة كان التقرير على مكتب صوفيا بتروفنا من 4 نسخ، وصدَّقت على النسخ الأربع بعناية. لم تدخر المشابك، وأرفقت الورق ببعضه بعناية.

لم تتابع سكرتيرة المدير أمر التقرير، ومن ثم قررت صوفيا بتروفنا أن تسلمه التقرير بنفسها.

اصطدمت عند الأبواب نصف المفتوحة لمكتب المدير بسكرتير الحزب. قال لها من دون أن ينحني بالتحية، وهو يعرج متجهًا إلى غرفة أخرى «الدخول هنا ممنوع»، وبدا منظره أشعث تمامًا.

رأت صوفيا بتروفنا من الباب نصف المفتوح رجلًا مجهولًا جالسًا على ركبتيه أمام المكتب، وقد أخرج بعض الأوراق من الخزانة الصغيرة. امتلأت سجادة المكتب كلها بالأوراق. سألت صوفيا بتروفنا السكرتيرة العجوز:

- في أي ساعة سيأتي الرفيق زاخاروف اليوم؟

أجابتها السكرتيرة بصوت منخفض جدًّا، تكاد شفتاها لا تتحركان:

- لقد قبضوا عليه في الليلة الماضية.

كانت شفتاها زرقاوين.

أعادت صوفيا بتروفنا التقرير إلى مكتبها. عندما وصلت إلى باب المكتب شعرت أن ركبتيها لا تحملانها. صم ضجيج الآلات الكاتبة أذنيها. هل عرفوا بالفعل أم لم يعرفوا بعد؟ إنهم ينقرون على الآلات الكاتبة كما لو أن شيئًا لم يحدث. لو كانوا قد أخبروها أن المدير مات، لكان ذهولها أخف وطأة. جلست في مكانها وبدأت تخلع المشابك آليًّا من الورق. دخل تيموفييف، وقد فتح الباب بمفتاحه الخاص. في البداية لاحظت صوفيا بتروفنا أنه بالرغم من عرج سكرتير الحزب، فإنه يسير باستقامة شديدة وتبدو مشيته منتظمة. قالت خائفة عندما اقترب منها: «عذرًا. اصطدمت بك عن غير عمد».

في الرابعة والنصف رن جرس الانصراف أخيرًا. هبطت صوفيا بتروفنا درجات السلم صامتة، وارتدت معطفها وقبعتها في صمت أيضًا، وخرجت إلى

الشارع. بدأ ذوبان الثلوج. توقفت صوفيا بتروفنا أمام إحدى البرك، وفكرت كيف يمكنها أن تتخطاها. اقتربت منها ناتاشا. كانت قد عرفت الخبر بالفعل، فقد أخبرتها به إيرنا سيميونوفنا. قالت لها صوفيا بتروفنا عندما وصلتا إلى الزاوية التي تفترقان فيها عادةً:

- ناتاشا، هل تصدقين أن زاخاروف مذنب فعلًا في شيء؟ ما هذا الهراء! نحن نعلم جيدًا يا ناتاشا أن...

لم تستطع إكمال حديثها لتُعبِّر عن ثقتها فيه. زاخاروف بلشفي، وهو مديرهما الذي اعتادتا على رؤيته كل يوم. زاخاروف عنصر مخرِّب؟ هذا أمر غير ممكن. هذا هراء وعبث كما قال فيودور إيفانوفيتش ذات يوم. كيف يمكن أن يحدث هنا سوء تفاهم؟ إنه رجل حزبي بارز، وهم يعرفونه جيدًا في قيادة الحزب في لينينجراد وفي موسكو أيضًا، ولا يمكن أن يقبضوا عليه بطريق الخطأ. إنه ليس شخصية عادية مثل كيباريسوف مثلًا.

صمتت ناتاشا. بعدها ببرهة قالت فجأة بإجلال شديد:

- سآتي معكِ إلى البيت وسأوضح لكِ كل شيء.

ذهبتا معًا. خلعتا معطفيهما في صمت. أخرجت ناتاشا من حافظتها القديمة جريدة مطوية بعناية. بسطت الصحيفة أمام صوفيا بتروفنا، وأشارت لها إلى مقالة بعينها. ارتدت صوفيا بتروفنا نظارتها. همست ناتاشا:

- لقد أغووه يا عزيزتي. امرأة...

بدأت صوفيا بتروفنا تقرأ المقالة.

حكت المقالة عن المواطن السوفييتي (أ)، وهو عضو شريف في الحزب أمرته الحكومة السوفييتية بالذهاب إلى ألمانيا بهدف فهم طريقة استخدام مُركب كيميائي اكتُشِف حديثًا. أتم واجبه بأمانة في ألمانيا، لكنه سريعًا ما انجذب إلى السيدة (س)، وهي شابة أنيقة زعمت تعاطفها مع الاتحاد السوفييتي. زارت السيدة (س) مواطننا كثيرًا في شقته. ذات مرة اكتشف المواطن (أ) فقدان وثائق سياسية خطيرة من مكتبه. أعلمته مالكة الشقة أن (س) جاءت إلى غرفته في غيابه. اتسم المواطن (أ) بالشجاعة الكافية ليقطع علاقته فورًا بالسيدة (س)، لكنه لم يتسم بالشجاعة الكافية لإبلاغ الرفاق بسرقة هذه الوثائق. عاد إلى الاتحاد السوفييتي، آملًا في أن يُكفِّر بعمله الشريف كمهندس سوفييتي عن جريمته. ظل يعمل طوال العام في هدوء، وبدأ يتناسى جريمته بالفعل. إلا أن عملاء الجستابو المتنكرين الذين اخترقوا بلادنا بدأوا يبتزونه. تحت تأثير الخوف منهم سلَّمهم المواطن (أ) خططًا سرية للمصنع الذي يعمل فيه. كشف أعضاء لجنة مكافحة الثورة المضادة

والتخريب الباسلون عملاء الفاشية، وأدت التحقيقات إلى المواطن (أ) البائس.

سألتها ناتاشا هامسة:

- أتفهمين؟ مكتوب: «أدت التحقيقات...»، إن مديرنا إنسان صالح بالطبع، ورجل حزبي شريف. مكتوب هنا أيضًا أن المواطن (أ) كان حزبيًّا شريفًا في البداية. يمكن لأي رجل حزبي شريف أن يقع في حبال امرأة فاتنة.

لم تكن ناتاشا قادرة على احتمال النساء الفاتنات. لم تعترف بسوى الجمال الصارم، ولم تجده في أحد قَطّ. تذكرت ناتاشا وقالت:

- يُقال إن مديرنا سافر إلى الخارج في مهمة. أتتذكرين حينما حكت لنا عاملة المصعد ماريا إيفانوفنا عن أنه جلب لزوجته من برلين بدلة زرقاء محبوكة؟

أذهلت المقالة صوفيا بتروفنا، وبالرغم من كل شيء لم تصدق ما قرأته. هذا المواطن (أ) شخص، وزاخاروف شخص آخر. هو من أبلغهم عن عملية المحاكمات بوصفه عضوًا مرموقًا في الحزب، وفي ظل قيادته حققت دار النشر دائمًا زيادة على الخطة الإنتاجية. قالت صوفيا بتروفنا منهكة:

- ناتاشا، نحن نعرف جيدًا أن...

قالت ناتاشا بحماسة:

- ما الذي نعرفه تحديدًا؟ نحن نعرف أنه كان مدير دار النشر التي نعمل فيها، ولا نعرف أي شيء شخصي عنه. هل أنتِ على علم بكل تفاصيل حياته؟ هل يمكنكِ أن تشهدي على ذلك؟

في حقيقة الأمر لم يكن لدى صوفيا بتروفنا أدنى تصور عما يفعله الرفيق زاخاروف حينما لم يكن في الإجتماعات التي ترأسها، ولم يصطحب ابنته حول شجرة العيد. الرجال كلهم بلا استثناء يحبون النساء الفاتنات. يمكن لأي خادمة وقحة أن تغوي أي رجل، حتى لو كان محترمًا. لو لم تكن صوفيا بتروفنا قد طردت خادمتها فاني في الوقت المناسب، لما عرف أحد إلام كان تغنجها أمام فيودور إيفانوفيتش سيفضي. قالت صوفيا بتروفنا:

- لنشرب الشاي.

في أثناء شرب الشاي تذكرتا أن زاخاروف تميز بهيئة عسكرية من حيث الظهر المستقيم والكتفين الواسعتين. ألم يكن في الماضي ضابطًا في الحرس الأبيض ([34])؟ من حيث العمر يمكن أن يكون الأمر كذلك تمامًا.

شربتا الشاي من دون تناول أي حلويات معه. شعرت كلتاهما بالإنهاك الشديد الذي منعهما من الذهاب إلى المتجر لشراء كعكة أو أي حلويات. قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «غدًا سوف يكون يومًا صعبًا في دار النشر. الأمر يبدو كما لو أن جثمانًا ميتًا في المنزل. مهما قالوا لا يمكن إلا أن أشعر بالأسف على المدير». تذكرت باب مكتبه الموارب، والرجل الجالس على ركبتيه أمام المكتب. لم تفهم إلا الآن من هذا الرجل الذي انخرط في التفتيش.

استعدت ناتاشا للانصراف. طوت الجريدة بعناية وأخفتها في حافظتها. ثم سكبت الماء المغلي لنفسها في الكأس، وأخذت تدفئ يديها الحمراوين الكبيرتين بالكأس قبل الانصراف. في طفولتها تعرضت يداها لضربات الصقيع، ومن ثم تشعر دائمًا بتجمدهما.

فجأة رن الجرس. رن مجددًا. مضت صوفيا بتروفنا لتفتح الباب. رن الجرس مرتين ([35])، وهذا يعني أن الزائر قادم لها هي دون غيرها. من يمكن أن يأتي في مثل هذا الوقت المتأخر؟

كان الطارق أليك فينكلشتاين.

بدت لها رؤية أليك بمفرده، من دون كوليا، أمرًا غير طبيعي.

صاحت صوفيا بتروفنا: «كوليا؟!»، وهي تمسك بأليك من طرف وشاحه المنسدل. «هل أصيب بحمى التيفوس؟».

خلع أليك الكالوش ببطء من دون أن ينظر إليها. أخيرًا قال:

- هششش! دعينا ندخل!

دخل الرواق، سائرًا على رؤوس الأصابع، وقد تقوست ساقاه القصيرتان بصورة مضحكة. تبعته صوفيا بتروفنا، ولم تكن قد استجمعت شتات نفسها بعد. قال لها عندما أغلقت الباب:

- بحق اللّه لا تخافي يا صوفيا بتروفنا. اسمعي ما سأقوله لكِ بهدوء من فضلك، ولا تخافي، فالأمر غير خطير فعلًا. ليس هناك ما يثير الهلع. يوم قبل... يوم قبل أمس، أم متى؟ في اليوم السابق للعطلة قبضوا على كوليا.

جلس على الأريكة، وفك وشاحه بيديه وألقاه على الأرض وبكى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-9-

كان عليها أن تهرع إلى مكان ما لتوضح سوء التفاهم المريع الذي حدث. كان عليها أن ترحل في هذه الدقيقة إلى سفيردلوفسك، وتحث المحامين والمدَّعين والمحققين والقضاة على العمل. ارتدت صوفيا بتروفنا معطفها وقبعتها وكالوشها، وأخرجت المال من الصندوق، ولم تنسَ جواز سفرها. عليها أن تذهب إلى المحطة حالًا لشراء تذكرة القطار.

لكن أليك، بعد أن جفَّف دموعه بوشاحه، قال إن السفر إلى سفيردلوفسك الآن غير مُجدٍ على الإطلاق. من المرجح أن يجلبوا كوليا إلى لينينجراد بوصفه من أبناء لينينجراد، ولم يعِش في سفيردلوفسك إلا منذ فترة قصيرة. ألن يكون من الأفضل لها أن تتريث قليلًا قبل السفر إلى سفيردلوفسك؟ ماذا لو أنه وصل إلى لينينجراد في أثناء ذهابها إلى سفيردلوفسك؟ خلعت صوفيا بتروفنا معطفها، وألقت جواز السفر والمال على الطاولة.

صاحت فجأة في أليك:

- المفاتيح؟ هل تركت المفاتيح هناك؟ هل تركت المفاتيح لأحد هناك؟

قال أليك مندهشًا:

- المفاتيح؟ أي مفاتيح؟

- يا إلهي! يا لحماقتك!

هكذا قالت صوفيا بتروفنا، وانخرطت فجأة في البكاء بصوت عالٍ. هرعت ناتاشا إليها واحتضنتها من كتفيها.

- المفاتيح... مفاتيح الغرفة الخاصة بـ... ماذا تسمونها؟ الغرفة في المدينة الجامعية.

لم يفهماها، ونظرا إليها نظرات مستفهمة. «يا لكما من حمقى!». انحبست الكلمات في حلقها ولم تستطع التفوه بها. صبَّت ناتاشا بعض الماء في الكأس وقدمته لها. قالت صوفيا بتروفنا وهي تبعد الكأس عنها:

- هل أنت متيقن... متيقن تمامًا من أنه هو المقبوض عليه؟ هل رأيته بعينك؟ ربما يكون شخصًا آخر، ويكون قد عاد إلى المنزل ولم يجدك، والمفاتيح ليست معه. لا بد أن برقية ستصلنا منه الآن.

تهاوت صوفيا بتروفنا بحذائها على الفراش. ظلت تبكي وضغطت رأسها على الوسادة، وبكت طويلًا حتى صارت وجنتاها والوسادة مبتلة على السواء. عندما نهضت آلمها وجهها وظلت تضرب بقبضتها على قلبها.

تهامس أليك وناتاشا عند النافذة. قال أليك، ناظرًا إليها بشفقة بعينيه الطيبتين من خلف نظارته:

- حسنًا، هذا ما اتفقنا عليه أنا وناتاليا سيرجيفنا ([36]). الآن عليكِ أن تنامي، وفي الصباح اذهبي بهدوء إلى مكتب المدعي العام. ستقول ناتاليا سيرجيفنا لهم غدًا في دار النشر إنكِ لست بخير أو مريضة قليلًا أو إن الدخان قد أمرضك ليلًا أو شيئًا من هذا القبيل.

غادر أليك. أرادت ناتاشا أن تقضي ليلتها معها، لكن صوفيا بتروفنا قالت إنها ليست في حاجة إلى شيء.

قبَّلتها ناتاشا وانصرفت، وبدا أنها هي أيضًا تبكي.

غسلت صوفيا بتروفنا وجهها بمياه باردة، وخلعت ثيابها واستلقت على الفراش. أضاءت ومضات الترام الغرفة في الظلام مثل البرق. امتد على الحائط وعلى السقف مربع ضوء أبيض مثل قطعة من الورق مطوية نصفين، كما تعالى من غرفة الممرضة صراخ وضحك فاليا. تخيلت صوفيا بتروفنا كيف يقود الحرس كوليا إلى التحقيق. المحقق شخصية عسكرية وسيمة، تملأ الشرائط والجيوب ثيابه. يسأل الرجل العسكري كوليا: «هل أنت نيكولاي فوميتش ليباتوف؟». يجيبه نيكولاي بعزة: «اسمي نيكولاي فيدوروفيتش ليباتوف». يوبخ المحقق الحارس بشدة، ويعتذر لكوليا: «يااه! كيف لم أعرفك؟ ألست هذا المهندس الشاب الذي نشروا صورته منذ فترة قريبة في جريدة الـ«برافدا»؟ تقبل اعتذاري من فضلك. كل ما في الأمر أن هناك تشابهًا بين اسمك واسم شخص تروتسكي عميل للفاشية وعنصر مخرب اسمه نيكولاي فوميتش ليباتوف».

ظلت صوفيا بتروفنا في انتظار برقية طوال الليل. بعد أن يعود كوليا إلى غرفته في المدينة الجامعية، ويعرف أن أليك رحل إلى لينينجراد، سيرسل برقية فورًا ليُطمئن أمه. الساعة السادسة صباحًا وعاد صرير الترام ليعلو مجددًا، واستيقظت صوفيا بتروفنا. لقد استيقظت إثر صوت الجرس الحاد الذي بدا لها كأنه يسري في قلبها مباشرةً. أهي برقية؟ لكن الجرس لم يتكرر مجددًا.

ارتدت صوفيا بتروفنا ثيابها واغتسلت، وأجبرت نفسها على شرب الشاي، ورتبت الغرفة. خرجت إلى الشارع، وكانت الغيوم تغطي السماء. لا يزال الجليد يذوب، ولكن خلال الليل تحولت البرك إلى ثلج خفيف.

خطت صوفيا بتروفنا بضع خطوات، ثم توقفت. إلى أين يتوجب عليها أن تتوجه؟

قال أليك إن عليها أن تذهب إلى مكتب المدعي العام. لكن صوفيا بتروفنا لم تكن تعرف بوضوح من هو هذا المدعي العام ولا مكانه. لم تذهب إلى المدعي العام، بل ذهبت إلى السجن لأنه تصادف أن تعرف مكانه في شارع شباليرنايا.

وقف الحارس ببندقيته عند البوابات الحديدية. كان الباب الأمامي الصغير الموجود بالقرب من البوابة مغلقًا. حاولت صوفيا بتروفنا دفعه بيدها وركبتها بلا جدوى. لم ترَ إشعارًا واحدًا في أي مكان.

اقترب منها الحارس قائلًا:

- الدخول في التاسعة صباحًا.

كانت الساعة حينها السابعة وأربعين دقيقة. قررت صوفيا بتروفنا ألا تعود إلى المنزل. ظلت تتسكع ذهابًا وإيابًا بالقرب من السجن، وتمد رأسها إلى أعلى لتنظر إلى القضبان الحديدية.

أيمكن أن يكون كوليا في هذه البناية، خلف هذه القضبان؟

قال لها الحارس:

- ممنوع السير هنا أيتها المواطنة.

انتقلت صوفيا بتروفنا إلى الجهة المقابلة من الشارع، وتقدمت إلى الأمام تلقائيًّا. رأت على الناحية اليسرى الصفحة الواسعة والثلجية والفارغة لنهر النيفا. انعطفت يسارًا وتوجهت إلى ضفة النهر.

أشرقت الشمس كاملًا، وانطفأت الأنوار على جسر ليتيني في صمت وود مدهش. تناثرت أكوام الثلج الأصفر القذر على صفحة النيفا. قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «إنهم يجلبون الثلج على الأرجح إلى هنا من كل أنحاء المدينة». انتبهت إلى حشد النساء الضخم الواقف في منتصف الشارع. وقف بعضهن متكئات على حاجز الجسر، بينما سار البعض الآخر ببطء على ممشى الجسر. الأمر الذي أدهش صوفيا بتروفنا هو أنهن ارتدين جميعًا ملابس ثقيلة للغاية؛ ارتدين معاطف ثقيلة، ولففن رؤوسهن بالأوشحة، كما ارتدين جميعًا تقريبًا أحذية لبادية وكالوشات. كنا يدققن بأقدامهن وينفخن في أيديهن. لم يكن هناك ما تفعله صوفيا بتروفنا ففكرت قائلة في نفسها: «من الواضح أنهن واقفات هنا منذ فترة طويلة ما دمن يشعرن بكل هذه البرودة. لكن ليس هناك صقيع. الثلوج تعاود الذوبان». اتسمت النساء جميعًا بالمظهر ذاته، كما لو أنهن جميعًا واقفات في المحطة في انتظار القطار منذ ساعات. نظرت صوفيا بتروفنا بانتباه إلى البناية التي احتشدت النساء أمامها؛ إنها بناية عادية وما من لافتات عليها. ماذا ينتظرن هنا؟ يتضمن حشد النساء بعض السيدات

اللاتي يرتدين معاطف أنيقة، وبعض النساء البسيطات. لم يكن هناك ما تفعله صوفيا بتروفنا، ومن ثم سارت مرتين عبر حشد النساء. وقفت واحدة منهن، حاملة طفلها على صدرها بيد، وأمسكت طفلًا آخر باليد الأخرى، وقد ربطت وشاحًا حول رأسها ربطة متعارضة. وقف رجل واحد فقط عند جدار البناية. بدت وجوههن جميعًا مائلة إلى اللون الأخضر؛ أتكون غشاوة الصباح الخفيفة هي السبب؟

اقتربت فجأة عجوز مهندمة ضئيلة البنية من صوفيا بتروفنا، تتكئ على عصا. لمعت خصلات شعرها الفضية وعيناها اليهوديتان السوداوان من أسفل القبعة المصنوعة من جلد الفقمة. سألتها العجوز بود:

- هل تريدين القائمة؟

- أي قائمة؟

- قائمة حرفي اللام والميم. القائمة في البناية رقم 28.

- أي قائمة؟

- قائمة حرفي اللام والميم.

- آه، عذرًا أيتها المواطنة. كنت تسيرين هنا فظننت أنكِ هنا من أجل أحد المقبوض عليهم.

أجابتها صوفيا بتروفنا بارتباك:

- نعم، لقد قبضوا على ابني.

ابتعدت صوفيا بتروفنا عن العجوز التي صدمتها بشدة بفطنتها، ومضت للبحث عن البناية رقم 28. فكرة أن كل هؤلاء النساء قد أتين إلى هنا للسبب ذاته الذي جاءت من أجله أثارت قلقها بصورة غريبة. لكن لماذا يقفن هنا على الجسر، وليس بالقرب من السجن؟ آه، تذكرت، الحارس لا يسمح بالوقوف بالقرب من السجن.

بدت البناية رقم 28 قصرًا متهالكًا عند الجسر تقريبًا. دخلت صوفيا بتروفنا المدخل الفخم للبناية، والقذر في الآن ذاته، وتضمن المدخل مدخنة ومرآة حائط ضخمة مهشمة وتمثالًا رُخاميًّا لكيوبيد بلا أي جناح. على الدرجة الأولى من السلالم الفخمة استلقت امرأة وقد وضعت أسفل ظهرها صحيفة، وأسفل رأسها حافظتها المكسوة بالصقيع. رفعت رأسها وسألت صوفيا:

- أتريدين تسجيل اسمك؟

ثم جلست، وأخرجت من حافظتها ورقة مبللة وقلمًا رصاصيًّا. قالت صوفيا بتروفنا بارتباك:

- في الحقيقة لا أعرف تحديدًا. جئت إلى هنا من أجل ابني الذي قبضوا عليه بالخطأ في سفيردلوفسك. هناك تشابه في الأسماء.

قاطعتها المرأة بغضب، وقد اتسمت بوجه ذكي ومنهك:

- تحدثي من فضلك بصوت منخفض، وإلا أخذوا منا القوائم. على أي حال ما هو اسم عائلته؟

أجابتها صوفيا بتروفنا بخجل:

- ليباتوف.

قالت لها المرأة وهي تدون الاسم:

- 344. رقمك هو 344. انصرفي من هنا من فضلك.

كررت صوفيا بتروفنا «344» وعادت ثانية إلى الجسر.

لا يزال الجمع يزداد. ظل الناس يسألون صوفيا بتروفنا: «ما رقمك؟ لن يُدخلوكِ اليوم إذن. لقد سجلنا أسماءنا منذ المساء الماضي». هكذا أخبرتها امرأة ربطت رأسها بوشاح بطريقة ريفية. سأل البعض الآخر بهمس: «أين القائمة؟». أشرقت الشمس بالفعل وحل النهار.

فجأة ركض الجمع كله متدافعًا. ركضت صوفيا بتروفنا مع الجميع. بكى طفل بصوت مرتفع، ووشاح مربوط حول رأسه. كانت ساقاه مقوستين، ولم يستطع مواكبة والدته. اندفع الحشد إلى شارع شباليرنايا. رأت صوفيا بتروفنا على بعد الباب الأمامي الصغير الموجود بالقرب من البوابات الحديدية وقد فتحوه بالفعل. تدافع الناس عند الباب كما يتدافعون عند باب الترام، ودفعت صوفيا بتروفنا نفسها معهم، وسرعان ما لم تعد هناك أي مساحة للتقدم. تزاحم الجمع في الممر المعتم قليلًا وعلى السلالم الخشبية الصغيرة. تأرجح الحشد، وفكوا جميعًا أوشحتهم وحلوا ياقات معاطفهم، وشقوا طريقهم صوب مكان ما؛ كل يبحث عن الرقمين: السابق والتالي له. ظل الناس يدفعون ويدفعون من الخلف. تجعدت صوفيا بتروفنا كما لو أنها قبعة، وفكت أزرار معطفها وجففت جبهتها المتعرقة بمنديل. ما إن إلتقطت أنفاسها وتعودت على المكان المعتم حتى بدأت تبحث هي الأخرى عن الرقمين: 343 - 345. كان صاحب الرقم 345 رجلًا، وصاحبة الرقم 343 عجوزًا محنية الظهر. سألت العجوز وقد رفعت عينيها الغائمتين صوب صوفيا بتروفنا:

- هل زوجك لاتفي هو أيضًا؟

- لا، لماذا؟ لماذا لاتفي تحديدًا؟ لقد مات زوجي منذ زمن بعيد، وكان روسيًّا.

سألت العجوز ذات الشعر الفضي والعينين اليهوديتين التي تحدثت مع صوفيا بتروفنا على الجسر:

- أخبريني من فضلك، هل لديك تصريح؟

لم تُجِب صوفيا بتروفنا. لم تفهم شيئًا هنا؛ لم تفهم هذه المرأة الغبية التي استلقت على السلالم، ولا تفهم الآن هذه الأسئلة الغبية عما إذا كان زوجها لاتفيًّا ولا عن التصريح. ما حاجتها إلى تصريح هنا؟ لقد بدا لها أنها ليست في لينينجراد، بل في مدينة أخرى أجنبية. كان من الغريب بالنسبة لها أنه على مسافة ثلاثين دقيقة سيرًا من هنا توجد دار النشر التي تعمل فيها، وناتاشا تنقر هناك على الآلة الكاتبة.

وقف الناس أخيرًا بهدوء بعد أن وجد كل منهم الرقمين السابق والتالي له. نظرت صوفيا بتروفنا إلى السلم، وإذا به يؤدي إلى غرفة، وثمة أناس محتشدون أيضًا عند الغرفة، ويبدو أن ثمة غرفة أخرى خلف هذه الغرفة أيضًا. نظرت صوفيا بتروفنا من حولها بتجهم. ها هي المرأة ذات الحافظة التي رأتها مستلقية على السلم، وهي ترتدي طبقة أخرى من الجوارب الصوفية فوق الطبقة الأولى، كما ترتدي حذاءين سيئين. بين الحين والآخر يأتي إليها أناس لم يسجلوا أسماءهم بعد وتقول لهم: «تأخر الوقت». هل يمكن للمرء أن يتصور أن كل هؤلاء النساء هن أمهات وزوجات وأخوات عناصر مخربة وإرهابيين وعملاء؟! وكل هؤلاء الرجال أيضًا هم أزواج أو إخوة عناصر مخربة وإرهابيين وعملاء! يبدون من مظهرهم أناسًا عاديين تمامًا، كالناس الذين يلتقي بهم المرء في الترام أو في أي متجر. الاختلاف الوحيد أنهم يبدون جميعًا منهكين بوجوه عابسة. قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «يمكنني أن أتصور الآن كم يبدو الأمر كارثيًّا للأم أن تعرف أن ابنها عنصر مخرب».

بين الحين والآخر تشق امرأة طريقها بصعوبة هابطة على السلم الضيق الذي يصدر صريرًا تحت الأقدام، وسط الجمع المتراص، ويسألها الواقفون بالأسفل: «هل قبلوه؟». تجيبهم: «قبلوه»، وتريهم ورقة وردية اللون. لكن امرأة بدت كبائعة ألبان، أمسكت صفيحة كبيرة، وقالت: «نفوه!»، وانخرطت في بكاء بصوت مرتفع، ووضعت الصفيحة وأسندت رأسها إلى عِضادة الباب. انسدل وشاح رأسها، ولاحت خصلات شعرها الكستنائية والقرطان الصغيران في أذنيها. أسكتوها من كل الاتجاهات: «شششش! إنه لا يحب الإزعاج. سوف يغلق النافذة وينتهي الأمر. هششش!».

عدَّلت بائعة الألبان وشاحها على رأسها وانصرفت والدموع على وجنتيها. فهمت صوفيا بتروفنا من الأحاديث التي دارت حولها أن غالبية النساء هنا جئن ليرسلن مالًا للمقبوض عليهم من أزواجهن وأبنائهن، والأمر كذلك مع بعض الأزواج والإخوة الذين جاءوا للسبب ذاته.

دار رأس صوفيا بتروفنا من شعورها بالاختناق وشدة الإنهاك. خافت بشدة أن يغلقوا النافذة الصغيرة المحجوبة التي يتدافع الجميع صوبها قبل أن تنجح في الوصول إليها. قال لها أحد الرجال: «إذا ظلوا يستقبلون الطلبات اليوم حتى الثانية فقط فلن ننجح في الوصول». حتى الثانية؟ هل من المعقول أن يستمر وقوفهم هنا حتى الثانية؟ هكذا فكرت صوفيا بتروفنا في كآبة. الساعة الآن لم تتجاوز العاشرة.

أغلقت عينيها، وحاولت التغلب على شعورها بالدوار. ترددت من حولها المحادثات الهادئة والمقتضبة بالثبات نفسه:

- متى أخذوا ذويك؟

- منذ ثلاثة أشهر.

- أما أنا فأخذوه مني منذ أسبوعين.

- ألا تعرفين أين يُجرون التحقيق أيضًا؟

- في مكتب المدعي العام.

- لا يفصحون عن أي معلومة في أي مكان.

- وهل ذهبتِ إلى شارع تشايكوفسكي؟ وماذا عن شارع جيرتسن؟

- شارع جيرتسن للعسكريين فقط.

- هل أخذوا ذويك؟

- أخذوا ابنتي.

- يُقال إنهم يقبلون توصيل الثياب الداخلية للمساجين في شارع أرسينالنايا.

- هل أنتم لاتفيون؟

- لا، نحن بولنديون.

- متى أخذوا ذويك؟

- منذ ستة أشهر.

- ما الرقم الذي وصلوا إليه؟ عشرين فقط؟ يا إلهي! آه لو أنهم لا يغلقون النافذة في الثانية! في المرة السابقة أغلقوها في الثانية بالضبط.

كررت صوفيا بتروفنا ما سوف تسأل عنه: هل أتوا بكوليا إلى لينينجراد؟ متى يمكن أن ترى القاضي أو المحقق؟ ألا يمكنها أن تراه اليوم؟ ألا يمكن أن تلتقي بكوليا اليوم؟

بمرور ساعتين وصلت صوفيا بتروفنا إلى الدرجة الأولى من السلم الخشبي خلف العجوز القروية. بمرور ثلاث ساعات وصلت إلى الغرفة الأولى. بمرور أربع ساعات وصلت إلى الغرفة الثانية، وهكذا حتى وصلت إلى الغرفة الخامسة، متتبعة الصف المتمعج حتى عادت إلى الغرفة الأولى مجددًا. كان بوسعها أن ترى من خلف ظهور الناس نافذة مربعة خشبية صغيرة، وكتفين عريضتين تلوحان منها ويدين كبيرتين لرجل سمين. وصلت الساعة إلى الثالثة. حسبت صوفيا بتروفنا فاتضح أن المتبقي حتى دورها 59 إنسانًا.

كانت النساء يذكرن الاسم ويمددن أيديهن بخجل بالنقود إلى النافذة الصغيرة. بكى الصبي ذو الساقين المقوستين، لاعقًا دموعه بلسانه. قالت صوفيا بتروفنا في نفسها بنفاد صبر: «سوف أتحدث معه الآن. سأجعله يرسلني إلى المحقق أو المدعي العام أو أيًّا كان اسمه. حتى الآن لا نزال نتسم بقدر كبير من عدم التحضر. لا يمكن تحمل مثل هذا الجو الخانق وانعدام التهوية الجيدة. يجب أن أكتب خطابًا بشأن ذلك إلى جريدة الـ«برافدا» في لينينجراد».

أخيرًا لم يتبقَّ على دور صوفيا بتروفنا سوى ثلاثة. جهزت أيضًا المال في يدها حتى لا يتعرض كوليا إلى أي إحراج في هذه الفترة. مدت العجوز ذات الظهر المحني ثلاثين روبلًا إلى النافذة الصغيرة بيد مرتعشة، ونالت إيصالًا ورديًّا. نظرت إلى الإيصال بعينين مظلمتين. سرعان ما صارت صوفيا بتروفنا في مكان العجوز. رأت شابًّا سمينًا بوجه أبيض منتفخ وعينين زرقاوين صغيرتين. بدأت صوفيا بتروفنا حديثها وقد مالت حتى ترى وجه محدثها بصورة أفضل من خلف النافذة الصغيرة:

- أريد أن أعرف هل ابني هنا؟

- الاسم؟

- ليباتوف. لقد تم القبض عليه بالخطأ، ومرت بالفعل عدة أيام ولا أعرف...

- صمتًا أيتها المواطنة.

هكذا قال لها، وانحنى على صندوق يحوي الكثير من البطاقات، ثم قال:

- ليباتوف أم لباتوف؟

- ليباتوف. أريد أن ألتقي اليوم بالمدعي العام أو أي مسؤول يمكنني أن ألتقي به.

- الحروف؟

لم تفهم صوفيا بتروفنا.

- ما هو اسمه الأول؟

- آاه فهمت، تريد الحرف الأول من اسمه واسم الوالد: ن. ف.

- «ن» أم «م»؟

- نون. نيكولاي.

قال الرجل وهو يخرج بطاقة من الصندوق:

- نيكولاي فيدوروفيتش ليباتوف. هنا.

- أريد أن أعرف...

- نحن لا نقدم معلومات. توقفي عن الحديث أيتها المواطنة. التالي!

استطاعت صوفيا بتروفنا أن تمد يدها إلى النافذة بثلاثين روبلًا، لكن الشاب قال لها وهو يبعد المال:

- غير مسموح له بذلك. التالي! ابتعدي أيتها المواطنة ولا تُعيقي الحركة.

وصلت إليها الهمسات من الخلف: «ابتعدي، ابتعدي»، وإذا بالشاب يصفق النافذة.

وصلت صوفيا بتروفنا إلى المنزل في السادسة. وجدت أليك وناتاشا في انتظارها. ارتمت على مقعدها لبضع دقائق من دون أن تقوى على خلع الكالوش والمعطف. نظر أليك وناتاشا إليها نظرة استفهامية. أخبرتهما أن كوليا هنا في السجن في شباليرنايا، ولم تستطع أن توضح لهما بأي طريقة لماذا لم تعرف التهمة الموجهة إليه ولا موعد رؤيته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-10-

أخذت صوفيا بتروفنا أسبوعين عطلة من العمل من دون أجر. هل يمكنها أن تفكر في أي أوراق أو في إيرنا سيميونوفنا وكوليا في السجن؟ لن يمكنها أن تذهب إلى العمل إطلاقًا حيث سيتوجب عليها أن تقضي الوقت من الصباح وحتى المساء، ومن المساء وحتى الصباح في طوابير عديدة. قدَّمت طلبها لسكرتير الحزب الأعرج، فبعد القبض على زاخاروف عينوه مؤقتًا قائمًا بأعمال المدير. جلس في المكتب ذاته الذي جلس فيه زاخاروف، وأمامه المكتب الكبير ذاته والتلفون. لم يرتدِ السترة نفسها ذات الياقة المنحرفة، بل حلة رمادية من أحد متاجر لينينجراد، وربطة عنق وصدرية رجالية، وبالرغم من كل ذلك بدا عديم الأهمية. قالت صوفيا بتروفنا إنها في حاجة إلى عطلة بسبب بعض الظروف الشخصية. ظل تيموفييف يكتب القرار طويلًا بحبر أحمر. قال لصوفيا بتروفنا إن إيرنا سيميونوفنا هي التي ستتولى عملها في هذه المرة، وأمرها بأن تسلمها عملها. تساءلت صوفيا بتروفنا: «ولماذا لا تحل فرولينكو مكاني؟ إيرنا سيميونوفنا جاهلة لا تستطيع الكتابة من دون أخطاء». لم يُجِب الرفيق تيموفييف بشيء ونهض من مكانه. حسنًا، لا يهم. خرجت صوفيا بتروفنا من المكتب، وأسرعت إلى الطابور.

لم تعد الأيام والليالي تنقضي في العمل ولا في المنزل، بل في عالم جديد؛ إنه عالم الطوابير. تقف على ضفة النيفا أو في شارع تشايكوفسكي حيث توجد هناك بعض المقاعد التي يمكن الجلوس عليها، أو في الردهة الضخمة لمقر قيادة أمن الدولة أو على سلالم مكتب المدعي العام. لا تعود إلى المنزل لتناول الطعام والنوم إلا حينما تحل مكانها ناتاشا أو أليك. سمح المدير لأليك بالذهاب إلى لينينجراد لأسبوع واحد فقط، لكنه ظل يؤجل عودته إلى سفيردلوفسك يومًا فالآخر، آملًا في أن يعود بصحبة كوليا. عرفت صوفيا بتروفنا الكثير في غضون هذين الأسبوعين؛ عرفت أن التسجيل في الطابور لا بد أن يتم في مساء اليوم السابق، في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة، وأن عليها أن تأتي إلى مكانها في الطابور كل ساعتين لتحضر تفقد الأسماء، ولكن الأفضل ألا تترك الطابور نهائيًّا، لئلا يشطبوا اسمها من القائمة. عرفت أيضًا أن عليها أن تأخذ معها معطفًا دافئًا وأن ترتدي حذاءً لباديًّا، فحتى في فترة ذوبان الثلوج يمكن للصقيع أن يُجمِّد الساقين بين الثالثة فجرًا والسادسة صباحًا، وتصيب قشعريرة صغيرة الجسد كله. عرفت أن موظفي المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية يأخذون القوائم، وأن من يُعد القوائم يأخذونه إلى نقطة الشرطة. عرفتْ أن على المرء أن يذهب في اليوم الأول من الأسبوع إلى مكتب المدعي العام، وهناك لا يستقبلون بحسب الحروف، بل يستقبلون الجميع، واليوم الموافق لحروف اسم كوليا في شباليرنايا هو

اليوم السابع واليوم العشرون، فقد كان وصولها في اليوم الأول إلى النافذة الصغيرة معجزة حقيقية. عرفت أنهم ينفون أُسر المقبوض عليهم خارج لينينجراد، وأن تصاريح السفر لا تكون موجهة إلى مصحات بل إلى المنفى، وأن من يسلم هذا التصريح في شارع تشايكوفسكي هو عجوز أحمر الوجه ذو شاربين رقيقين كشاربي القط، بينما تسلمها في مكتب المدعي العام شابة ذات شعر مجعد وأنف حاد. عرفت أيضًا أنه على المرء أن يقدم جواز سفره في شارع تشايكوفسكي، بينما لا يتوجب عليه ذلك في شارع شباليرنايا. عرفت أنه قد تم اكتشاف الكثيرين من اللاتفيين والبولنديين الأعداء، وهذا ما يُفسِّر وجود الكثير من اللاتفيين والبولنديين في الطوابير. تعلَّمت أن تُخمِّن من النظرة الأولى مَن مِن المارة ليس شخصًا عاديًّا، بل أحد الذين يقفون في الطابور، بل إنها حتى عندما تكون في الترام تعرف بنظرة سريعة مَن مِن النساء في طريقها إلى البوابات الحديدية للسجن. تعلمت الانتقال بين السلالم الأمامية والخلفية كافة للجسر وأن تجد بسهولة المرأة التي معها القائمة أينما توارت. عرفت أيضًا، بعدما تخرج من منزلها بعد نوم قصير، أنها سوف تُقابل في كل مكان؛ في الشارع وعلى السلم وفي الرواق وفي الردهة؛ في شارع تشايكوفسكي وعلى الجسر وفي مكتب المدعي العام، نساء ونساء ونساء؛ العجائز منهن والشابات، يرتدين المعاطف والقبعات، يحملن أطفالًا على صدورهن في الثالثة أو لا يحملن أطفالًا على الإطلاق، ومنهن من يبكي طفلها من فرط الإنهاك، ومنهن من تصطحب طفلًا هادئًا، نساء خائفات وأخريات مقتضبات، وكما حدث في طفولتها أن أغلقت عينيها بعد رحلة في الغابة ورأت ثمارًا وثمارًا وثمارًا، ها هي الآن تغلق عينيها فترى وجوهًا ووجوهًا ووجوهًا.

شيء واحد لم تعرفه في غضون هذين الأسبوعين؛ لماذا تم القبض على كوليا؟ ومن سيحاكمه؟ ومتى ستكون هذه المحاكمة؟ ما التهمة التي وجهوها إليه؟ متى ينتهي سوء الفهم الغبي هذا ويعود إلى منزله؟ نظر العجوز ذو الوجه الأحمر في مكتب الاستعلامات في شارع تشايكوفسكي ذو الشاربين اللذين يبدوان كشاربي القط إلى جواز سفرها وسألها: «ما اسم ابنك بالضبط؟ هل أنتِ أمه؟ لماذا لم تأتِ زوجته؟ غير متزوج؟ نيكولاي ليباتوف؟ التحقيق ما زال جاريًا». وألقى لها الجواز من النافذة، وقبل أن تنطق صوفيا بتروفنا بشيء سقط باب النافذة الصغيرة من أعلى إلى أسفل، ورن جرس يعني «التالي». لم يكن لدى صوفيا بتروفنا ما يمكنها أن تتحدث عنه من خلف باب النافذة، ومن ثم وقفت في مكانها للحظة ثم رحلت. في مكتب المدعي العام قالت لها الشابة ذات الشعر المجعد والأنف الحاد، وهي تطل من النافذة الصغيرة: «ليباتوف؟ نيكولاي فيدوروفيتش؟ لم تصل القضية إلى مكتب المدعي العام بعد. عودي إلى هنا بعد أسبوعين». أبعد الرجل السمين

الناعس مالها وقال: «غير مسموح له». هذا كل ما عرفته عن كوليا؛ البعض يُسمح لهم بتلقي المال من ذويهم، أما هو فلسبب ما غير مسموح له. لماذا؟ لكنها فهمت جيدًا أنه لا طائل من توجيه السؤال للموظف من خلف النافذة.

لذلك ظلت تسأل أليك أسئلة متواصلة عن كيف قبضوا على كوليا، ويحكي لها أليك بإذعان مرة ثانية فثالثة أنهما ناما، وفجأة تعالى طرق على الباب، ودخل مدير المدينة الجامعية، ومن خلفه الحارس ومن خلفه رجل بثياب مدنية وآخر بثياب عسكرية. تسأله صوفيا بتروفنا:

- كم كانت الساعة؟

- الواحدة والنصف صباحًا تقريبًا.

يواصل روايته: يشعل الحارس النور، ويسأل الموظف المدني: «من هنا يُدعى نيكولاي ليباتوف؟».

تقاطعه صوفيا بتروفنا بقلق:

- وهل خاف كوليا؟

- إطلاقًا. لقد ارتدى ثيابه وطلب مني أن أبلغهم غدًا في المصنع أنه قد أُوقِف بالخطأ، وأنه ربما يتغيب عنهم لعدة أيام، وأن يجعلوا ياشا رويتمان يحل محله في هذه الفترة، وهو كومسمولي عندنا.

- هل من المعقول ألا يكون قد أخذ معه أي شيء؟

وتُشيح صوفيا بتروفنا بذراعيها. وضَّح لها أليك أن كوليا رفض أن يأخذ معه أي ملابس داخلية أو منشفة بالرغم من أن الغسيل كان قد أُحضِر لتوه. قال: «وما حاجتي إليها؟ سأعود بعد غد». قال له الرجل العسكري: «أنصحك بشدة أن تأخذ معك أغراضك». لكن كوليا كرر له أنه لا حاجة له إليها، وأنه سيعود غدًا. تقول صوفيا بتروفنا بتأثر:

- هذا يعني أن الرجل قدم له النصيحة بضمير صافٍ. ولكن ألن يعطوه هناك منشفة؟

انتظر أليك كوليا بخضوع يومًا والثاني فالثالث، وفي اليوم الرابع وحسب قرر أن يسافر إلى لينينجراد ليوضح الموقف. كذب على المدير قائلًا إن والدته تحتضر، وتفهم المدير الموقف وسمح له بالسفر.

سألت صوفيا بتروفنا أليك بحذر عما إذا كان كوليا قد تشاجر مع مديريه هناك، أو تواقح على أحد أو رافق شخصًا ما اتضح فيما بعد أنه عنصر مخرب، أو ربما حتى ارتبط بامرأة ورَّطته بشكل ما. لكن أليك أجابها بانفعال:

- ماذا تقصدين بامرأة؟ وهل يمكن لأحد أن يُورِّط نيكولاي؟ ألا تعرفينه جيدًا؟ لقد قال عنه المدير أمامه مباشرةً أنه سوف يكون المهندس المستقبلي اللامع.

بالطبع، بالطبع لا يمكن لكوليا أن يتورط في شيء سيئ. ألا تعلم صوفيا بتروفنا أن ذهنه وقلبه مكرسان تمامًا للسلطة والحزب السوفييتين؟ لكن لا يمكن لشيء أن يحدث هكذا من دون سبب. لا يزال كوليا شابًّا، ولم يحيَ بمفرده من قبل. كان على كوليا أن يُعيِّن أحدًا مكانه، فعلى المرء أن يعرف كيفية التعامل مع الناس. نظرت صوفيا بتروفنا بنفور إلى أليك؛ لم يَقُم بدوره تجاه كوليا جيدًا. لو كان كوليا قد مكث في لينينجراد، تحت عيني أمه، لما حدث شيء من ذلك. لم يكن عليها أن تتركه يرحل إلى سفيردلوفسك.

حاولت صوفيا بتروفنا أن تقنع نفسها أنه حتى في ظل هذا الوضع لا يمكن أن يصيبه مكروه. لقد انتظرت عودة كوليا إلى المنزل في كل ساعة، بل في كل دقيقة. تذهب إلى الطابور لكنها تترك مفتاح غرفتها دائمًا على الرف الصغير في الرواق، في المكان القديم المعتاد. تترك أيضًا حساءً ساخنًا من أجله في الموقد. عندما تعود تصعد درجات السلم سريعًا من دون توقف للحظة واحدة، كما كانت تفعل حينما كانت تنتظر خطابًا. ستدخل غرفتها الآن لتجد كوليا في المنزل يتساءل عن مكان ماما.

في الليلة الماضية سمعت صوفيا بتروفنا امرأة في الطابور تُحدِّث امرأة أخرى قائلة: «لا جدوى من انتظار عودته. من يقبضون عليه لا يعود أبدًا». أرادت صوفيا بتروفنا أن تمزقها، لكنها لم تفعل ذلك. في بلادنا لا يقبضون على الأبرياء، إنهم وطنيون سوفييت ككوليا. سيفهمون سوء التفاهم الذي حدث ويطلقون سراحه.

ذات يوم مساءً، وبعد أن أقنع أليك صوفيا بتروفنا أن تستلقي قليلًا، ارتدى معطفه، وربط وشاحًا حول عنقه وودعها. كان اليوم هو التاسع عشر من الشهر، وقد مضى ليأخذ دوره في طابور شباليرنايا. قالت له صوفيا بتروفنا من على فراشها بصوت ضعيف: «سآتي بعد ساعتين على أقصى تقدير». أجابها بحيوية قائلًا: «لا مشكلة حتى إذا جئتِ في الخامسة يا صوفيا بتروفنا»، وخرج، لكنه عاد لسبب ما. اقترب من ناتاشا الجالسة عند النافذة ممسكة بين يديها أدوات الحياكة. سألها، ناظرًا إليها مباشرةً بعينيه البراقتين من خلف عدسات نظارته:

- ما رأيك يا ناتاليا سيرجيفنا، هل جميع من في السجن ككوليا؟ تبدو لي الأمهات في الطوابير في الوضع المرير ذاته الذي تمر به صوفيا بتروفنا.

أجابته ناتاشا بطريقتها المعهودة:

- لا أعرف.

في السابق اتسمت ناتاشا بقلة الحديث، ولكن منذ أن قبضوا على كوليا بدا الأمر كما لو أنها قد فقدت القدرة على التحدث نهائيًّا. لم تعد تجيب عن أي سؤال بسوى: «نعم»، أو «لا»، أو «لا أعرف». بدا الأمر أن المرء لو سألها عن اسمها فستجيب أيضًا: «لا أعرف». صارت تقضي كل أوقات فراغها من العمل عند صوفيا بتروفنا؛ تجهز الغداء وتغسل الصحون، وتقدم لها ماءً مخلوطًا بنبات الناردين ([37]) أو تذهب إلى الطابور. تفعل كل ذلك من دون أن تقول كلمة واحدة.

قالت صوفيا بتروفنا بهدوء:

- ماذا تقول يا أليك؟ كيف يمكنك إجراء مثل هذه المقارنة؟ لقد قبضوا على كوليا بناء على سوء تفاهم، لكن الآخرين ليسوا كذلك. ألا تقرأ الصحف؟

- آاه الصحف!

قالها أليك وخرج.

نشروا في الصحف ذات مرة اعترافات المتهمين في المحاكمة. بالأمس قرأت صوفيا بتروفنا في الطابور صفحة كاملة من خلف كتف الرجل الواقف أمامها. آلمتها قدماها، وأوجعها قلبها، لكن قراءة الصحيفة جذبتها حتى إنها مدت عنقها وقرأت الصفحة كلها. حكى المتهمون تفصيلًا عن جرائم القتل والتسميم والتفجيرات، وشعرت صوفيا بتروفنا بالقدر ذاته من الغضب الذي شعر به المدعي العام. يسأل المدعي العام، كابحًا غضبه، المدعَى عليه: «وماذا يُدعى ذلك؟». يجيبه المدعَى عليه بحزن: «خسة».

لا، لم تتجنب صوفيا بتروفنا جيرانها في الطوابير عبثًا. لقد أشفقت عليهم بالطبع من منطلق إنساني، خاصةً على الأطفال، ولكن يجب على أي إنسان شريف أن يعرف أن كل هؤلاء النساء هن زوجات وأمهات مُسمِّمين وجواسيس وقتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

مر أسبوعان. عاد أليك إلى المصنع في سفيردلوفسك، وعادت صوفيا بتروفنا إلى عملها في دار النشر من دون معرفة أي شيء عن كوليا.

وصَّحت لها النساء في الطابور أن الأمر في الغالب يؤول في النهاية إلى مكتب المدعي العام، وعندما يحدث ذلك يمكن لهن الذهاب إليه. لا يلتقي المدعي العام بهن من خلف نافذة، بل يجلس معهن إلى الطاولة، ويمكن حينها للواحدة منهن أن تحكي له كل شيء.

لم يتبقَّ إذن أمامها سوى أمر واحد؛ أن تذهب إلى عملها، وتحصي الورق وتبتسم، وتوزع المهام وتفكر في كوليا على خلفية النقر المستمر على الآلات الكاتبة. كوليا ماكث في سجنه. كوليا في سجنه. إنه موجود وسط رجال العصابات والجواسيس والقتلة. إنه في زنزانة موصدة.

عندما تتخيل السجن القابع فيه كوليا تتصور دائمًا لوحة الأميرة تاراكانوفا ([38]): حائط مظلم، وفتاة بشعر أشعث تتكئ على الحائط، وشعرها مبلل والفئران من حولها. لكن لا بد أن كل شيء مختلف في السجون السوفييتية بالطبع.

عندما ودعها أليك نصحها ألا تخبر أحدًا بشيء عن خبر القبض على كوليا. في البداية قالت له بغضب: «أنا لا أخجل من شيء يا كوليا»، ثم وافقته بعد ذلك، ففي كل الأحوال لا يعرف الآخرون كوليا جيدًا، ولا يمكنهم تصور حقيقة شخصيته. لم تحكِ لأحد عن شيء في العمل أو في الشقة؛ عدا زوجة ديجتيارينكو التي وجدتها ذات مرة تبكي في الحمام. تنهدت زوجة ديجتيارينكو بتعاطف وقالت لها: «لا تبكي، فربما يعود. الآن فهمت لماذا تركضين طوال اليوم هنا وهناك. لقد تغير وجهك تمامًا».

مرت خمسة أشهر منذ أن قبضوا على كوليا. انتهى الشتاء وحل الربيع ثم حرارة يونيو التي لا ترحم، ولم يعد كوليا بعد. وهنت صوفيا بتروفنا من شدة الحرارة والانتظار والطوابير الليلية. خمسة أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام، ثم خمسة أيام، ثم ستة أيام... خمسة أشهر وأربعة أسابيع، ولم يعد كوليا بعد، وما زال من غير المسموح إرسال المال له، وفجأة بدأت المشكلات في العمل عند صوفيا بتروفنا؛ مشكلة تلو الأخرى.

إيرنا سيميونوفنا هي من جلبت هذه المشكلات.

عندما عادت صوفيا بتروفنا إلى عملها بعد عطلتها التي امتدت لأسبوعين وجدت أنهم عينوا إيرنا سيميونوفنا مساعدة لها لتعاونها في مراجعة الأوراق. اعتقدت صوفيا بتروفنا أنها لن تنال أي مساعدة منها، فهي جاهلة. كيف

يمكنها أن تصحح أخطاء الكاتبات وهي جاهلة؟ لكن لم تكن هناك طريقة لعدم الانصياع لقرارات تيموفييف. صارت إيرنا سيميونوفنا مساعدة لها وصمتت صوفيا بتروفنا حيال القرار.

ذات يوم أوقف الرفيق تيموفييف بمفاتيحه التي يتعالى رنينها، فقد صار يحمل مفاتيح المكاتب والغرف كافة، صوفيا بتروفنا في الرواق، وطلب منها أن ترسل له فرولينكو بعد العمل. أرسلت صوفيا بتروفنا ناتاشا إليه في مكتبه، وانتظرتها في غرفة الملابس وهي تتساءل عما يريده الرفيق تيموفييف من ناتاشا.

عادت ناتاشا سريعًا. بدا وجهها الشاحب متبلدًا، واقتصر الأمر على أن شفتيها بدتا أنهما ترتعشان قليلًا. عندما خرجتا إلى الشارع قالت لها ناتاشا:

- لقد فصلوني من العمل.

توقفت صوفيا بتروفنا.

- قدَّمت إيرنا سيميونوفنا لسكرتير الحزب نسخة من عملي الذي أديته بالأمس. لو تتذكرين، كانت هناك مقالة كبيرة عن الجيش الأحمر. في أحد المواضع كتبت الجيش «الأقمر» بدلًا من «الأحمر».

قالت صوفيا بتروفنا:

- ولكن هذا مجرد خطأ بسيط. ما الذي جعلك تتصورين أنهم سوف يطردونك من العمل غدًا. الجميع يعرفون أنكِ أفضل كاتبة في المكتب.

- لقد قال إنهم سوف يفصلونني من العمل لقلة انتباهي.

مضت ناتاشا خطوات إلى الأمام، وأشعة الشمس تضرب عينيها مباشرةً، لكنها لم تطرف بعينيها.

اصطحبتها صوفيا بتروفنا إلى غرفتها وجهزت الشاي. كوليا غير موجود. في الماضي، عندما عاش كوليا في أمان في سفيردلوفسك لم تتعذب صوفيا بتروفنا من حقيقة عدم وجوده معها. كل ما في الأمر أنها شعرت بالاشتياق له قليلًا. أما الآن، فكل شيء في الغرفة يصرخ في وجه صوفيا بتروفنا بأن كوليا غير موجود، وها قد اسودَّت عجلته المسننة على حافة النافذة وحيدة.

قالت لها ناتاشا بينما تودعها:

- سوف آتي غدًا إلى دار النشر، لكنها ستكون المرة الأخيرة.

صاحت فيها صوفيا بتروفنا:

- لا تتفوهي بالحماقات. لا يمكن أن يحدث ذلك.

لكن تبين أن ذلك يمكن أن يحدث. في اليوم التالي علقوا على حائط الرواق أمر إقالة «ن. فرولينكو» و «ي. جريجوريفا»؛ السكرتيرة السابقة للمدير. السبب المعلن لإقالة فرولينكو هو غياب اليقظة السياسية، بينما السبب المعلن لإقالة السكرتيرة يرتبط باكتشاف أن المدير السابق زاخاروف عدو للشعب.

إلى جانب أمر الإقالة علقوا لافتة كبيرة تعلن أن اليوم سوف ينعقد إجتماع عام لجميع العاملين في دار النشر في الخامسة. جدول الأعمال:

1 - تقرير الرفيق تيموفييف عن التخريب في قطاع دور النشر.

2 - أمور أخرى متفرقة.

الحضور إلزامي.

بعد أن أعدت ناتاشا حقيبتها الصغيرة انصرفت فور أن رن الجرس، وقالت للجميع معًا: «إلى اللقاء». أجابتها الكاتبات بصوت واحد: «حظًّا سعيدًا»، إلا إيرنا سيميونوفنا التي انشغلت بضبط تسريحة شعرها على انعكاس زجاج النافذة. شعرت صوفيا بتروفنا بضيق شديد. رافقتها صوفيا بتروفنا حتى غرفة الملابس، وقالت لها عند انصرافها: «سأنتظرك مساءً».

جمعت رئيسة النقابة العمالية المحلية الجميع في مكتب المدير. جلبت موظفة المصعد ماريا إيفانوفنا المقاعد. دخلت صوفيا بتروفنا، وجلست في الصف الأول. شعرت بالخوف والوحدة. أضاءوا النور العلوي، وأسدلوا الستائر الثقيلة. دخل الموظفون وجلسوا. ارتسم على وجوه الجميع تعبير واضح من الفضول القلِق والنهم. صاحت رئيسة النقابة العمالية المحلية في أعضاء قسم التحرير:

- ما الأمر يا رفاق؟ هل يجب أن نرسل إليكم دعوة خاصة للحضور؟

كان تيموفييف واقفًا بالقرب من الطاولة مستغرقًا في تفحص الأوراق.

أعلنت رئيسة النقابة العمالية المحلية بدء الإجتماع. أعلن الحاضرون اختيارها لرئاسة الإجتماع برفع أيديهم بتكاسل. تنحنح الرفيق تيموفييف. بدأ حديثه:

- لقد إجتمعنا اليوم يا رفاق كي نشيير ــ ـيير إلى النقص الإجرامي لليقظة السياسية في دار النشر، والتفكير في كيفية التعامل مع نتائجه. (تحدَّث في هذه المرة بثقة ونعومة حتى إنه لم يتلعثم إلا قليلًا) على مدار خمسة أعوام كاملة ظل أمام أعيننا مباشرةً - إذا جاز التعبير - عدو الشعب، والمجرم الشرير والإرهابي والمخرب المدير السابق زاخاروف. لقد حُرِم زاخاروف

بالفعل من مواصلة الإضرار، لكنه جلب في عهده مجموعة كاملة من أتباعه أو حاشيته إذا جاز التعبير، وقد شكلوا هنا جميعًا عشًّا كثيفًا، ومهدوا الطريق لمكائده التروتسكية القذرة. لم يتم القضاء على هذه الحاشية الزاخاروفية حتى الآن؛ الأمر المثير للخزي. أمامي هنا (ويشير إلى الأوراق) بيانات تفصيلية ستكشف لكم أعمال الثورة المضادة القذرة.

صمت تيموفييف وسكب لنفسه بعض الماء. مسح فمه بيده ثم عاود التحدث:

- ماذا تكشف هذه الوثائق؟ إنها تكشف بصورة لا جدال فيها أنه في عام 1932، وبناء على أمر شخصي من المدير، من دون أي تشاور مع رئيسة النقابة العمالية المحلية وإدارة شؤون الموظفين؛ أكرر بناءً على أمر شخصي منه، تم توظيف ناتاشا فرولينكو.

ارتعشت صوفيا بتروفنا تمامًا على مقعدها، كما لو أن الحديث يدور عنها.

- ومن هي ناتاشا فرولينكو؟ إنها ابنة عقيد كان مالكًا لما كانوا يدعونه في الأيام الغابرة «ضيعة». يتساءل المرء ما الذي فعلته المواطنة فرولينكو في دار نشرنا السوفييتية، وهي ابنة عنصر غريب قبلها مجرم كزاخاروف؟ تجيب وثيقة أخرى عن هذا السؤال. تعلمت المواطنة فرولينكو تحت إشراف زاخاروف تخطيط هجمات الثورة المضادة. إنها تُسمي الجيش الأحمر «الجيش الأقذر».

جف حلق صوفيا بتروفنا.

- وماذا إذن عن السكرتيرة السابقة جريجوريفا؟ إنها صديقة مخلصة للمدير، استطاع الإعتماد عليها كاملًا في أنشطته كافة إذا جاز التعبير. كيف حدث أن استمر عنصر مخرِّب وأتباعه في خداع مجتمع سوفييتي طوال خمسة أعوام بهذه الوقاحة؟ أمر واحد يمكنه تفسير ذلك يا رفاق: النقص الإجرامي لليقظة السياسية.

جلس الرفيق تيموفييف وشرب بعض الماء. نظرت صوفيا بتروفنا إلى الماء بنهم فقد جف حلقها. رنَّت رئيسة النقابة العمالية المحلية الجرس بحدة بالرغم من أن الجميع لزموا الصمت ولم يتحرك أحد. سألت:

- من يطلب الكلمة؟

صمت.

- أيها الرفاق، من يطلب الكلمة؟

صمت.

- هل من المعقول أن أحدًا لا يريد أن يقول كلمتين عن هذه المسألة الخطيرة؟

صمت. فجأةً انطلق صوت عالٍ من ناحية الباب، وإلتفتت الرؤوس كلها صوبه. كانت عاملة المصعد ماريا إيفانوفنا. حتى هذه اللحظة لم تكن تحدثت في أي إجتماع سابق. بصورة عامة قليلون من يسمعون صوتها في دار النشر.

- من فضلك، أطلب الكلمة أيتها الرفيقة إيفانوفا.

اقتربت عاملة المصعد من الطاولة بخطوات قوية.

- أود أنا أيضًا أن أقول كلمتي البروليتارية. الأمر صحيح فيما يتعلق بالسكرتيرة أيها المواطنون. لقد اعتادت أن تدخل المصعد بالكالوش، وتترك آثارًا في كل مكان، ويتوجب على المرء أن ينظف من خلفها. تترك الأثر وينظف المرء من خلفها. يأخذها المصعد إلى الأعلى وإذا بها تريد أن تهبط به. تصعد بالمصعد مائة مرة ثم تهبط به مجددًا، وكيف يمكنني أن أرفض إنزالها بالمصعد وهي تجالس المدير دائمًا؟ أينما يذهب تجدها. إذا دخل المصعد، تدخل خلفه، وإذا استقل السيارة تجلس بجانبه. صحيح فعلًا أنهما عملا معًا. كل ما أريد قوله أيها الرفيق تيموفييف بطريقتنا البروليتارية البسيطة، إنه مهما قال المرء له: «أوقف هذه السيدة»، لا يعير الأمر انتباهًا. يُلوِّح بيده وينصرف، وهذا كل ما في الأمر. أتظن أيها الرفيق تيموفييف أن عاملة المصعد إنسانة بسيطة لا تفهم؟ إذا ظننت ذلك فأنت مخطئ. لسنا الآن في العصر البائد. لم يعد هناك بسطاء في عصر السلطة السوفييتية، بل صار الجميع كبارًا.

قالت آنا جريجوريفنا:

- صحيح أيتها الرفيقة إيفانوفا، صحيح.

- مَن يطلب الكلمة أيضًا من الرفاق؟

صمت.

ثم طلبت صوفيا بتروفنا بهدوء:

- أنا من فضلك.

نهضت ثم جلست مجددًا.

- أريد أن أقول بضع كلمات بخصوص فرولينكو. ما كتبته مريع بالطبع، ولكن في أي عمل تظهر بعض الأخطاء، أليس كذلك؟ السبب الذي جعلها تكتب كلمة «أقمر» بدلًا من «أحمر» ببساطة هو أمر تعرفه كل الكاتبات هنا، ألا وهو أن حرف الـ«ح» يوجد إلى جانب حرف الـ«ق» مباشرة في الآلة الكاتبة. قال

الرفيق تيموفييف إنها كتبت «أقذر»، لكنها في الحقيقة كتبت «أقمر» وليست «أقذر»، وهذا يعني أنه لا وجود لأي نية سيئة بل هو مجرد خطأ بسيط. فرولينكو عاملة مؤهلة تمامًا وكادحة. ما حدث هو مجرد مصادفة.

صمتت صوفيا بتروفنا.

سألت رئيسة النقابة العمالية المحلية تيموفييف:

- هل ستجيب عن ذلك؟

أجاب تيموفييف من خلف الطاولة وهو يطرق بأصابعه على الأوراق:

- الوثائق! لا يمكنك معارضة الوثائق أيتها الرفيقة ليباتوفا. أقذر أم أقمر، هذا لا يعني شيئًا. هناك نزعة طبقية معادية انكشفت من جانب المواطنة فرولينكو.

- من أيضًا يطلب الكلمة؟ حسنًا، أعلن إنتهاء الإجتماع.

انصرف الناس سريعًا، هارعين إلى منازلهم. تحدثوا كثيرًا عند الشماعات في غرفة الملابس عن أن الترام رقم 5 نادرًا ما يأتي، وعن أنواع الطماق الممتازة التي ظهرت في قسم الأطفال في متجر «الممر». دعا المحاسب إيرنا سيميونوفنا في نزهة بالزورق. قالت وهي تمد شفتيها أمام المرآة كما لو أنها ستتلقى قبلة:

- آه منك ومن قاربك! فلنذهب الآن إلى السينما.

لكن أحدًا لم يقل شيئًا عن الإجتماع وعن العناصر المخربة.

عادت صوفيا بتروفنا سريعًا إلى المنزل من دون أن تلاحظ الطريق. لقد بدا لها أنها عندما تعود إلى غرفتها وتغلق الباب سيتوقف رأسها عن الشعور بالألم، وستكون بخير. نبض صدغاها بقوة. لماذا يؤلمها رأسها بهذه الطريقة؟ لم يدخن أحد في الإجتماع. آه يا ناتاشا المسكينة! حظها سيئ في الحياة. كاتبة ممتازة وفجأة...عندما وصلت إلى غرفتها وجدت ملحوظة على الطاولة:

«المبجلة صوفيا بتروفنا، لقد عدت ثانيةً. ياشا روتمان أرسل تقريرًا ضدي إلى الكومسمول لأنني كنت على علاقة بنيكولاي. لقد طردوني من الكومسمول لأني رفضت التبرؤ من نيكولاي، كما فصلوني من العمل. أمر شديد الصعوبة أن يطردوا المرء هكذا. سوف أعود غدًا.

المخلص لكِ،

ألكسندر فينكلشتاين».

جعدت صوفيا بتروفنا الورقة بين يديها. يا إلهي! كم من المشكلات؛ كوليا في البداية ثم ناتاشا، والآن أليك! لكن أليك مذنب بالتأكيد؛ لا بد أنه قال شيئًا ما في الإجتماع. لقد صار حادًّا. في يوم رحيله، وعندما سألته مجددًا بحذر عما إذا كان كوليا قد ارتبط بجماعة سيئة ما، احمر وجهه غضبًا، وضغط نفسه على الحائط وصرخ فيها قائلًا: «هل تفهمين ما تقولينه أم لا؟ كوليا غير مذنب في أي شيء. هل يعقل أن تكوني أنتِ من يشك فيه؟». بالطبع لم تساورها أي شكوك، وسيكون من السخف افتراض ذلك، ولكن ألم يُقدِّم كوليا لهم أي سبب يدفعهم إلى ذلك؟ لا بد أن أليك سخر من السلطة في الإجتماع. كان عليه أن يتوسط من أجل كوليا، ولكن بحذر ولباقة واعتدال.

شعرت صوفيا بتروفنا بصداع. لم ينتهِ الإجتماع بالنسبة لها بعد. لا يزال صوت تيموفييف يرن في أذنيها. شعرت أنها لا تستطيع التنفس جيدًا، وبدا لها صوت تيموفييف يضغط على صدرها. هل عليها أن تستلقي؟ لا، لن يجدي ذلك. لقد قررت أن تستحم.

هناك شيء ما في كلمات تيموفييف جعلها تشعر بالتجمد. بدا لها أنها إذا استحمت فستزول هذه الحالة فورًا. أحضرت بنفسها الحطب من الخزانة، وسخنت الماء. في السابق كان كوليا هو من يجلب لها الحطب، ثم تولى أليك الأمر، وبعد رحيله الثاني إلى سفيردلوفسك تولت ناتاشا هذه المهمة. آه من أليك! إنه بالطبع صبي صالح، ومخلص لكوليا، لكنه حاد جدًّا. لا يمكن للمرء أن يستمر هكذا. ألا تكون جرأته هذه هي التي جعلتهم يسجنون كوليا؟ ذات مرة، حينما قالت لأليك في طابور شباليرنايا إنهم لم يقبلوا توصيل المال لكوليا مجددًا، صاح بصوت عالٍ: «أيها البيروقراطيون الملاعين!». لا بد أنه تصرف بطريقة مشابهة في المصنع في سفيردلوفسك.

أطلقت صوفيا بتروفنا المياه، وخلعت ثيابها وجلست في حوض الاستحمام الأبيض الواسع الذي اشتراه فيودور إيفانوفيتش. لم تُرِد الاغتسال. استلقت ساكنة وأغلقت عينيها. كيف ستتمكن من الاستمرار في عملها من دون ناتاشا؟ كل هذا حدث بسبب هذه المدعوة إيرنا سيميونوفنا! يظهر في هذا العالم بعض الحساد والأشرار الذين لا مثيل لهم، ولكن لا يهم، سوف تجد ناتاشا وظيفة أخرى في مكان ما قريب، وسوف تلتقيان كثيرًا. آه لو يعود كوليا سريعًا!

استلقت، ناظرةً إلى يديها التي تغير شكلها بالماء. هل يمكن حقًّا أن تكون سكرتيرة المدير عنصرًا مخربًا؟ الأفضل ألا تفكر في هذا الأمر. يا له من يوم صعب! لقد ضغطها الإجتماع كالعادة. استلقت مغمضة العينين في دفء وهدوء.

أوقد أحدهم بابور الجاز (البريموس) في المطبخ، وسرعان ما تعالت جلبة الأواني، وتفوهت الممرضة كعادتها ببعض الكلمات اللاذعة؛ قالت ببطء:

- حتى الآن لم أُصب بعد بالجنون أو العمى. لقد اشتريت ثلاثة لترات كيروسين أول أمس. والآن لا أجد قطرة واحدة منه. لم يعد بإمكان المرء أن يترك أي شيء في المطبخ.

قالت زوجة ديجتيارينكو بصوت غليظ، وكان بوسع المرء أن يخمن من صوتها أنها منحنية تغسل الأرضية أو الموقد:

- ومن الذي سيأخذ الكيروسين الخاص بك؟ كلٌّ لديه الكيروسين الذي يكفيه. هل تظنين أني أخذته؟

- أنا لا أتحدث عنكِ. هناك أناس آخرون يعيشون في هذه الشقة غيرك. إذا كان أحد أعضاء الأسرة في السجن فيمكن للمرء أن ينتظر أي شيء من أسرته إذن. إنهم لا يرسلون أحدًا إلى السجن من أجل فعلة جيدة.

صُعقت صوفيا بتروفنا.

قالت زوجة ديجتيارينكو:

- وماذا في الأمر إذا سجنوا الابن؟ سوف يطلقونه قريبًا. إنه لم يمد يده إلى جيب أحدهم، وليس لصًّا. إنه شاب مثقف. وهل عدد المسجونين الآن قليل؟ يقول زوجي إنهم يسجنون الآن الكثير من المحترمين. ألم يكتبوا عنه في الصحيفة؟ لقد كان رائعًا في عمله.

تعالى صوت فاليا:

- أتظنين أنه فعلًا رائع في عمله؟ لقد تنكَّر، هذا كل ما في الأمر.

تعالى صوت الممرضة مجددًا:

- إنها تظن إذن أنه حمل بريء. لا، عذرًا، إنهم لا يسجنون الناس عشوائيًّا. كفاكِ! أيمكن أن يسجنوني مثلًا؟ بالطبع لا، ولماذا؟ لأني امرأة شريفة سوفييتية قلبًا وقالبًا.

شعرت صوفيا بتروفنا بالبرودة في حوض الاستحمام. ارتعش كل جسدها. جفَّفت جسدها وارتدت مِبذلها ومضت إلى غرفتها على أطراف أصابعها. استلقت تحت الغطاء، ووضعت وسادة فوق ساقيها. لكن الرعشة لم تفارق جسدها. ظلت مستلقية وجسدها يرتعش بينما تحدق أمامها مباشرةً في الظلام.

في الثانية صباحًا، حينما نام الجميع، نهضت وارتدت معطفًا فوق قميصها وتوجهت إلى المطبخ. أخذت الكيروسين الخاص بها، وبابور الجاز (البريموس)، وكل أوانيها، ونقلت كل شيء إلى غرفتها.

لم تستطع النوم إلا قرابة الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-12-

في اليوم التالي وجدت أليك في انتظارها على باب دار النشر. تبين أنه وناتاشا ذهبا إلى طابور المدعي العام من دون أن يقولا لها شيئًا حتى لا يُقلقاها بلا داعٍ. مكثا هناك ست ساعات، يتبادلان الوقوف، ومنذ نصف ساعة قالت لهما السيدة من خلف النافذة الصغيرة إن قضية نيكولاي ليباتوف وصلت إلى المدعي العام تسفيتكوف، ومن ثم حجزا لصوفيا بتروفنا مكانًا في طابور المدعي العام تسفيتكوف في الغرفة رقم 7.

حاول أليك أن يقنع صوفيا بتروفنا بأن تمضي إلى بيتها لتتناول الغداء أولًا، لكنها خشيت أن تُفوِّت دورها في الطابور، ومن ثم أسرعت إلى هناك بكل سرعتها. ذهبت لتنقذ كوليا. سيعتمد مصير كوليا على ما ستقوله الآن للمدعي العام. سارت لاهثة، وفكرت فيما ستقوله للمدعي العام في الطريق. سوف تحكي للمدعي العام عن كيف إلتحق كوليا في صباه بالكومسمول رغمًا عن إرادة والدته تقريبًا، وكيف تعلم بكد في المدرسة وفي المعهد، وكيف قيَّموا جهوده الثمينة في المصنع، وكيف مدحته جريدة الـ«برافدا». لقد كان مهندسًا رائعًا وكومسموليًّا شريفًا وابنًا بارًّا. هل يمكن لإنسان كهذا أن تفوح منه رائحة أعمال تخريبية أو ثورة مضادة؟ يا له من هراء! يا له من افتراض صفيق! إنها أمه، وستشهد أمام القضاة بأن هذا كذب.

فتح أليك الباب الثقيل لها، ودخلت.

رأت صوفيا بتروفنا في الفترة الأخيرة الكثير من الطوابير، لكنها لم ترَ طابورًا كهذا من قبل.

وقف البعض وجلس البعض الآخر، واستلقى البعض على الدرجات كافة وعلى كل الأرصفة وعلى جميع درجات سلم المبنى الضخم المكون من خمسة طوابق. لم يكن صعود هذه الدرجات ممكنًا من دون أن تطأ القدمان يد أحدهم أو بطنه. في الرواق، بالقرب من النافذة الصغيرة وباب الغرفة رقم 7، يقف جمع كثيف من الناس كما يكون الأمر في الترام. هؤلاء هم المحظوظون الذين استطاعوا بالفعل صعود درجات السلم. وقفت ناتاشا منحنية عند أحد الحوائط تحت لافتة كبيرة: «رفع لواء الشرعية الثورية!». وصلت صوفيا بتروفنا وأليك إليها، وتوقفا وأخذا نفسًا عميقًا. خلع أليك نظارته المتعرقة، وبدأ يجففها بأصابعه. قالت ناتاشا:

- حسنًا، سوف أذهب الآن. دوركِ خلف هذه السيدة.

أرادت صوفيا بتروفنا أن تحكي لناتاشا عن إجتماع الأمس، وكيف هبَّت للدفاع عنها، لكن لمع ظهر ناتاشا بالفعل من على بعد بالقرب من السلم.

قال أليك مومئًا برأسه تجاه ناتاشا:

- الأمور تسوء مع ناتاشا سيرجيفنا. لن يقبلوها في أي عمل، مثلي تمامًا.

تبين أن ناتاشا قد تقدمت بالفعل للعمل ككاتبة في بضع مؤسسات، لكن أيًّا منها لم تقبلها بعد أن سألوها عن مكان عملها السابق. الأمر ذاته حدث مع أليك، فقد عرج على أحد مكاتب التصميم الهندسي مباشرةً من المحطة، ولكن بعد أن عرفوا هناك أنه قد استُبعِد من الكومسمول توقفوا عن التحدث معه. قال أليك:

- لقد سجلوا أسماءنا في القائمة السوداء على حد فهمي. أوغاد! من أين ظهر فجأة كل هؤلاء الأوغاد؟

قالت صوفيا بتروفنا بنبرة توبيخ:

- أليك! لا تتحدث بهذه الصورة. هذه النبرة هي التي جعلتهم يطردونك من الكومسمول.

أجابها أليك بشفتين مرتعشتين:

- لا، لم يطردوني يا صوفيا بتروفنا بسبب نبرتي، بل لأني لم أرغب في التبرؤ من نيكولاي.

قالت صوفيا بتروفنا بنعومة وهي تربت على يده:

- لا، لا يا أليك. أنت لا تزال شابًّا وأؤكد لك أنك مخطئ. كل شيء يعتمد على اللباقة. بالأمس مثلًا دافعتُ في الإجتماع عن ناتاليا سيرجيفنا، وماذا حدث؟ لم يفعلوا شيئًا لي. صدقني حكاية كوليا هذه تعذبني. أنا أم، لكني أفهم أن ما حدث هو مجرد سوء تفاهم مؤقت أو هو نوع من المبالغة والخلل. يجب أن نتحلى بالصبر. أما أنت فتقول مباشرة: أوغاد! أنذال! تذكر، كان كوليا يقول دائمًا: لا تزال لدينا الكثير من النواقص والبيروقراطية.

صمت أليك. ارتسم على وجهه تعبير عنيد متصلب. كان وجهه غير حليق، شاحبًا، ذا عينين زرقاوين. بدت نظرته من خلف عدسات النظارة جديدة هذه المرة؛ نظرة متجهمة ومنتبهة. قال:

- لقد قدَّمت بالفعل طلبًا إلى لجنة المنطقة. إذا لم ينصفوني هناك، فسوف أذهب إلى موسكو، ومن هناك إلى القيادة المركزية للكومسمول مباشرة.

قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «مسكين! ستكون أحواله صعبة من دون عمل. لا بد أن عمته توبخه الآن». انحنت صوفيا بتروفنا صوب أليك وهمست

في أذنه: «سوف يطلقون سراح كوليا، وسيعيدونك فورًا». ابتسمت له، لكن أليك لم يبتسم لها.

كان باب غرفة المدعي العام لا يزال بعيدًا. أحصت صوفيا بتروفنا أربعين فردًا. ثمة غرفتان هنا، فالغرفة رقم 7 تحتوي على مدعيَين عامَّين وليس واحدًا، وبالرغم من ذلك لا يتحرك الطابور إلا ببطء شديد. نظرت صوفيا بتروفنا إلى الوجوه، وبدا لها أنها قد رأت غالبية هذه النساء من قبل في طابور شباليرنايا أو في طابور تشايكوفسكي أو هنا في طابور المدعي العام بالقرب من النافذة الصغيرة. من الممكن أن تكون النساء ذاتها، وربما تكون الوجوه مختلفة. ثمة شيء يبدو واحدًا يرتسم على وجوههن جميعًا؛ نوع من الإنهاك والإذعان، ونوع من التكتم أيضًا. أمسكت الكثيرات منهن بأوراق بيضاء، وعرفت صوفيا بتروفنا بالفعل أن هذه الأوراق هي أوراق النفي. كان بالإمكان سماع ثلاثة أسئلة طوال الوقت في هذا الطابور: «إلى أين ستذهبين؟»، «متى ستذهبين؟»، «هل تمت إجراءات مصادرة؟».

مالت صوفيا بتروفنا إلى الحائط، وأغلقت عينيها لدقيقة. يا لها من امرأة بلا قلب؛ امرأة شريرة وغبية هي زوجة المحاسب! كيف يمكنها أن تتصور أن كوليا عنصر مخرب؟! لقد عرفته منذ طفولته. لا تطأ صوفيا بتروفنا الآن عتبة المطبخ أبدًا. لن تطأها حتى تطلب منها الممرضة السماح. يمكنها أن تتصور الآن كيف ستشعر الممرضة بالخزي حينما يعود كوليا. سوف تحكي صوفيا بتروفنا كل شيء لكوليا؛ ستحكي له عن الصديقين الرائعين: ناتاشا وأليك، فمن دونهما لم تكن لتتولى أمر الطوابير، وستحكي له عن تلك الأفعى زوجة المحاسب. ستدعه يعرف أي نوع من الأوغاد يمكن أن يلتقي بهم في هذا العالم.

بعد أن فتحت صوفيا بتروفنا عينيها لفتت انتباهها تلك الفتاة الصغيرة الجالسة القرفصاء بالقرب من الحائط. ارتدت معطفًا وقد أغلقت أزراره كافة. قالت صوفيا بتروفنا في نفسها: «كم اعتدنا على تدفئة الأطفال جيدًا حتى صيفًا!»، وفجأة، وبعد أن تأملتها عرفتها؛ إنها الابنة الصغرى للمدير زاخاروف. تململت الفتاة بظهرها على الحائط ثم بكت، وقد وهنت من فرط الحرارة. أما المرأة طويلة القامة والرشيقة التي ارتدت حلة مشرقة اللون، ووقفت خلفها صوفيا بتروفنا وأليك، فكانت زوجة المدير. إنها هي قطعًا.

مالت صوفيا بتروفنا إلى الفتاة ولاطفتها قائلة:

- كيف حال آلة النفخ؟ ألا تزال سليمة أم تحطمت؟ ألا تتذكريني؟ كنت عند الشجرة. دعيني أفك لك أزرار المعطف.

صمتت الفتاة، ونظرت إلى صوفيا بتروفنا بعينيها المستديرتين، ممسكة بيد أمها. قالت زوجة المدير:

- ماذا بكِ؟ أجيبي السيدة!

توجهت صوفيا بتروفنا بالحديث إليها قائلةً:

- أعرف زوجك. لقد عملت في دار النشر.

- آآه!

هكذا أجابتها زوجة المدير وقد لوت شفتيها بطريقة مشوهة. كانت شفتاها مزينتين بأحمر شفاه، لكنه لم يكن عليهما بالضبط، بل فوق الشفة وأسفلها. إنها امرأة جميلة بلا شك، لكنها لم تبدُ الآن لصوفيا بتروفنا أنيقة وشابة كما رأتها منذ نصف عام مضى عندما جاءت لبرهة قصيرة إلى زوجها في دار النشر، وأجابت انحناءات الموظفين بالتحية في الرواق بدماثة. سألتها صوفيا بتروفنا:

- ما أخبار زوجك؟

- عشرة أعوام في معسكرات عمل بعيدة.

فكرت صوفيا بتروفنا: «اتضح إذن أنه مذنب. لم أكن لأتخيل ذلك قَطُّ. كان شخصًا لطيفًا».

- وسيرسلوننا أنا وهي إلى كازاخستان. سنعيش هناك في إحدى القرى الصغيرة. سوف نرحل غدًا. سوف أموت جوعًا هناك من دون عمل.

تحدثت بصوت عالٍ وحاد، ونظر الجميع إليها. سألتها صوفيا بتروفنا حتى تُغير موضوع الحديث:

- وإلى أين أرسلوا زوجك؟

- وكيف لي أن أعرف؟ هل تظنين أنهم يفصحون عن المكان؟

- ولكن كيف يمكنكما أن تجدا بعضكما بعضًا، ولنقل بعد عشرة أعوام مثلًا حينما يطلقون سراحه؟ لن تعرفي عنوانه، ولن يعرف عنوانك.

قالت زوجة المدير وهي تشيح بذراعها مشيرةً إلى حشد النساء اللاتي يحملن أوراق النفي:

- وهل تظنين أن أي واحدة منهن تعرف أين هو زوجها؟ لقد رحَّلوا الأزواج، أو سوف يرحلونهم غدًا، أو ربما يرحلونهم اليوم، وكذلك يرحلون الزوجات إلى

أحد الأماكن المريعة، ولا تعلم الزوجة كيف ستتمكن فيما بعد من العثور على زوجها. كيف لي أن أعرف إذنْ؟ لا أحد يعرف، وأنا أيضًا لا أعرف.

أجابتها صوفيا بتروفنا بهدوء:

- لا بد من التحلي بالمثابرة. إذا لم يفصحوا لكِ هنا عن مكانه فعليكِ بالكتابة إلى موسكو أو السفر إلى هناك مباشرةً، وإلا فما العمل؟ بهذه الطريقة سوف يُضيِّع بعضكما بعضًا تمامًا.

رمقتها زوجة المدير بنظرة من قدمها وحتى رأسها، وسألتها بحنق شديد، حتى إن صوفيا بتروفنا وجدت نفسها تقترب تلقائيًّا من أليك:

- ومَن مِن ذويك أخذوه؟ زوجك؟ ابنك؟ حينما ينفون ابنك أريدك أن تتحلي بهذه المثابرة حتى تكتشفي عنوانه.

قالت صوفيا بتروفنا بنبرة حزينة:

- لن ينفوا ابني. إنه بريء. لقد قبضوا عليه بالخطأ.

قهقهت زوجة المدير وتحدثت بحرص على إظهار كل مقطع بوضوح:

- هاهاها! بالخطأ؟!

وفجأة سالت الدموع على وجنتيها، وأكملت:

- أتعرفين؟ الجميع هنا قُبِض عليهم بالخطأ.

ثم صاحت في الطفلة: «أقول لكِ قفي». ومالت إليها حتى تخفي دموعها.

تبقى خمسة أشخاص بين صوفيا بتروفنا والوصول إلى باب غرفة المدعي العام. أخذت صوفيا بتروفنا تُكرِّر لنفسها الكلمات التي ستقولها له. فكرت بشفقة متسامحة في زوجة المدير. أزواج صالحون! لا شيء يُقال أكثر من ذلك. يجلبون المتاعب، وتتعذب الزوجات بسببهم. إنها ذاهبة الآن إلى كازاخستان بصحبة طفلة، بالإضافة إلى هذه الطوابير، ومن ثم لا بد وأن تنفعل بعصبية.

قال أليك فجأة:

- سوف أدخل معكِ. سوف أحكي للرفيق المدعي العام بوصفي زميلًا وصديقًا أن نيكولاي إنسان بلشفي صلب بصورة واضحة وضوح الشمس. سوف أحكي له عن تبني المصنع للعجلة المسننة التي اخترعها؛ الأمر الذي ندين به كلية له.

لكن صوفيا بتروفنا أرادت ألا يصحبها أليك إلى مكتب المدعي العام. لقد خشيت من حدته، فقد يتواقح ويفسد كل شيء. لا، الأفضل أن تدخل إليه بمفردها. أكدت لأليك أن المدعي العام لا يقبل دخول الغرباء.

أخيرًا أتى دورها. فتحت زوجة المدير الباب ودخلت. دخلت صوفيا بتروفنا خلفها بقلب جزع. ثمة مكتبان أمام جدارين متقابلين في غرفة كبيرة فارغة تكاد تكون مظلمة، وأمام المكتبين مقعدان متهالكان. جلس خلف المكتب الأيمن رجل ممتلئ أبيض ذو عينين زرقاوين. جلس خلف المكتب الأيسر رجل أحدب. اقتربت زوجة المدير وابنتها من صاحب البشرة البيضاء، بينما اقتربت صوفيا بتروفنا من الأحدب. لقد سمعت منذ فترة في أثناء وقوفها في الطوابير أن المدعي العام تسفيتكوف أحدب.

انخرط تسفيتكوف في محادثة تلفونية، وجلست صوفيا بتروفنا على المقعد. كان تسفيتكوف متوسط القامة، نحيلًا، وقد ارتدى حلة زرقاء ناعمة. بدا رأسه حادًّا، وحدبته كبيرة ومستديرة. لديه يدان طويلتان عظميتان، وقد نما فوق الأصابع شعر أسود. أمسك بسماعة التلفون بطريقة جعلته لا يشبه إنسانًا بل قردًا. بدا بصورة عامة لصوفيا بتروفنا شبيهًا بالقرد، حتى إنها وجدت نفسها تفكر تلقائيًّا: إذا أراد أن يحك المنطقة الموجودة خلف أذنه، فلا بد أنه سيفعلها بقدمه.

صاح تسفيتكوف في سماعة التلفون بصوت أجش:

- فيودوروف؟ تسفيتكوف يحدثك. أهلًا بك. قُل لبانتيلييف إني انتهيت. دعه يرسله. ماذا؟ أقول لك دعه يرسله.

خلف المكتب الآخر تحدث الرجل الأبيض الممتلئ ذو العينين الصغيرتين اللتين تبدوان خزفيتين وبليدتين واليدين الناعمتين كأيدي النساء بأدب مع زوجة المدير. قالت له باختصار وهي واقفة أمام المكتب، ممسكة بيد ابنتها:

- أريد نقلي من هذه القرية إلى أي مدينة. في القرية سأكون بلا عمل، ولن يكون لدي ما أعيل به ابنتي وأمي. أعمل كاتبة اختزال، وليس هناك في القرية عمل في هذا المجال. أطلب منك أن ترسلني إلى مدينة لا قرية حتى لو كانت في هذا البلد المدعو... ما اسمها؟ آه كازاخستان.

قال لها صاحب البشرة البيضاء بلطف:

- اجلسي أيتها المواطنة.

سأل تسفيتكوف صوفيا بتروفنا، بعد أن ترك الهاتف ورمقها بعينيه السوداوين الصغيرتين:

- ماذا تريدين؟

- أنا هنا من أجل ابني. لقبه: ليباتوف. قُبض عليه بالخطأ. قالوا لي إن قضيته معك.

- ليباتوف؟ (سألها تسفيتكوف محاولًا التذكر) عشرة أعوام في معسكرات العمل. (إلتقط سماعة التلفون مجددًا) المجموعة أ؟ 244 -- 16.

صاحت صوفيا بتروفنا:

- كيف ذلك؟ هل حاكموه بالفعل؟

- 244 -- 16؟ أريد موروزوف.

صمتت صوفيا بتروفنا، وقد وضعت يدها على قلبها. نبض قلبها ببطء وبصوت عالٍ. وصل النبض إلى أذنيها ووجنتيها. قررت صوفيا بتروفنا أن تنتظر حتى ينهي تسفيتكوف المكالمة. نظرت بخوف إلى يديه الطويلتين المشعرتين وحدبته المغطاة بالجلد الميت وإلى وجهه الأصفر غير الحليق. الصبر! الصبر! سمعت صوت نبضات قلبها، وكذلك النبض في أذنيها ووجنتيها.

على المكتب المقابل قال المدعي العام أبيض البشرة بلطف لزوجة المدير:

- عبثًا تستائين أيتها المواطنة. اجلسي من فضلك. كممثل عن الشرعية أنا ملزم بتذكيرك أن القانون الستاليني العظيم يضمن الحق في العمل للجميع من دون تمييز. ما دام أن أحدًا لا يحرمك من أيٍّ من حقوقك المدنية، يظل حقك في العمل موفورًا في أي مكان تعيشين فيه.

نهضت زوجة المدير بانفعال وتوجهت صوب الباب. ركضت خلفها الطفلة بخطوات مرتبكة صغيرة. بعد أن وضع تسفيتكوف السماعة سأل بفظاظة:

- أما زلتِ هنا؟ ماذا تريدين؟

سألته صوفيا بتروفنا، مستجمعة كل قواها حتى لا يرتعش صوتها:

- أريد أن أعرف ما هي الجريمة التي أُدين بها ابني. لقد ظل دائمًا كومسموليًّا لا عيب فيه ومواطنًا شريفًا.

- لقد اعترف ابنك بجرائمه ووقَّع على وثيقة التحقيق. إنه إرهابي وقد شارك في عمل إرهابي. أتفهمين؟

بدأ تسفيتكوف يفتح ويغلق أدراج المكتب؛ يفتحها ثم يغلقها بضربة قوية. كانت الأدراج فارغة.

حاولت صوفيا بتروفنا بألم شديد أن تتذكر ماذا تريد أن تقول أيضًا، لكنها نسيت كل شيء. في هذه الغرفة، وأمام هذا الشخص، تصير كل الكلمات بلا جدوى. نهضت وتوجهت صوب الباب. سألت عند وصولها إلى الباب:

- كيف أعرف مكانه الآن؟

- لا علاقة لي بذلك.

كان أليك المخلص في انتظارها في الرواق. شقَّا طريقهما في صمت وسط الحشد الموجود في الرواق، ثم السلم. خرجا إلى الشارع في صمت، وهناك تعالى أزيز الترام، ولمعت الشمس، وتصادم المارة. لا يزال أمام النهار الصيفي الخانق وقت طويل حتى ينتهي.

سألها أليك بقلق:

- ماذا حدث يا صوفيا بتروفنا؟

- أدانوه. حكموا عليه بعشرة أعوام في معسكرات العمل.

صاح أليك:

- غير معقول! وما التهمة؟

- المشاركة في عمل إرهابي.

- كوليا يشارك في عمل إرهابي؟ هراء!

- قال المدعي العام إنه اعترف بنفسه، ووضع توقيعه على التحقيق.

تدفقت الدموع على وجنتي صوفيا بتروفنا. توقفت عند أحد الحوائط، وقد استندت إلى أنبوب صرف.

قال أليك بصوت مختنق:

- كوليا ليباتوف إرهابي! آه أيها الأوغاد! أوغاد! هراء لا يُصدَّق. أتعرفين يا صوفيا بتروفنا، بدأت أعتقد أن كل ما يحدث هو نوع من التخريب الهائل. لقد استوطن المخربون مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، وهم الذين يديرون الأمر كله. هم بأنفسهم أعداء الشعب الحقيقيون.

قالت صوفيا بتروفنا باكية:

- لكن كوليا اعترف يا أليك، اعترف! أتفهم يا أليك؟

أمسك أليك بيد صوفيا بتروفنا بقوة وقادها إلى المنزل. عند باب شقتها، وبينما لا تزال تبحث عن المفتاح تحدث مجددًا:

- كوليا لم يعترف بشيء، هل من المعقول أن لديك أدنى شك في ذلك؟ لم أعد أفهم شيئًا. لم أعد أفهم شيئًا تمامًا. أريد شيئًا واحدًا الآن؛ أن أتحدث مع الرفيق ستالين مباشرةً عسى أن يُوضِّح لي ما الذي يعتقده حيال كل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-13-

ظلت صوفيا بتروفنا مستيقظة طوال الليل. كم ليلة مرت منذ أن قبضوا على كوليا؟ أهو عدد لا نهائي؟ لقد حفظت كل شيء عن ظهر قلب: أصوات الأقدام التي تمر صيفًا بالقرب من النافذة، والصيحات في الحانة المجاورة، وحكة الترام الذابلة، ثم الصمت والظلام القصيران، ثم يزحف الفجر الأبيض مجددًا من النافذة ويبدأ يومًا جديدًا؛ يومًا من دون كوليا. أين هو الآن؟ كيف ينام؟ فيمَ يفكر؟ أين هو؟ مع من؟ لم تَشُك صوفيا بتروفنا في براءته لثانية واحدة. فعل إرهابي؟ هراء! على حد قول أليك. كل ما في الأمر ببساطة أن محققًا حاذقًا ورَّطه وأوقع به. لا بد أن كوليا لم يستطع تبرئة نفسه. إنه لا يزال صغيرًا. عندما بزغ الصباح مجددًا، تذكرت صوفيا بتروفنا أخيرًا الكلمة التي ظلت تحاول تذكرها طوال الليل «الدفع بالغيبة». لقد قرأتها في مكان ما. لم يستطع ببساطة أن يثبت غيبته عن مكان الجريمة.

في الساعات الأولى من عملها شعرت بقدر من الراحة نوعًا ما. أشرقت الشمس بسطوع، ولاح الغبار في أشعة الشمس، واستمر النقر بهمة على الآلات الكاتبة، وفي الاستراحة هرعت الكاتبات إلى الشارع بالأسفل وانهمكن في مص البوظة. مضى كل شيء كالمعتاد. حُكِم عليه بعشرة أعوام؟! الآن في ضوء النهار بان لها كيف أن كل هذا محض هراء. ألن ترى كوليا لعشرة أعوام؟ لماذا؟ ما هذا الهراء؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. سيعود كل شيء إلى ما كان عليه في يوم رائع قريبًا جدًّا. سيعود كوليا إلى المنزل، وسيتجادل مع أليك كالمعتاد عن السيارات والقاطرات، وسيرسم كعادته، وكل ما سيختلف هو أنها لن تسمح له بالذهاب مجددًا إلى سفيردلوفسك. يمكنه أن يتدبر أمره هنا في لينينجراد.

في الاستراحة خرجت لتتجول في الرواق، فقد خشيت أن تغفو وهي جالسة. علقوا على حائط الرواق مجلة جديدة. احتشد الموظفون أمامها. اقتربت صوفيا بتروفنا هي الأخرى من المجلة لتقرأ المكتوب. كان إصدارًا كبيرًا أنيقًا بأحرف كبيرة حمراء وصور لينين وستالين على الحائط وعنوانًا أحمر ساطعًا: «طريقنا». اقتربت صوفيا بتروفنا من المجلة. قرأت صوفيا بتروفنا: «كيف حدث أن استمر المخربون على مدار خمسة أعوام كاملة في التخطيط لأعمالهم القذرة أمام عين أحد المجتمعات السوفييتية من دون أن يوقفهم أحد؟». كانت الافتتاحية لتيموفييف. في العمود الصحفي بجانب العنوان بدأت مقالة رئيس النقابة العمالية المحلية. وجَّهت آنا جريجوريفنا اتهامًا لاذعًا لتيموفييف بأن حديثه في الإجتماع لم يكن نقديًّا بدرجة كافية. إذا أغفل الناس التخريب، فلا بد للرفيق تيموفييف سكرتير الحزب أن يكون أول من يجيب عن ذلك. علاوة على ذلك، وكما تبين فيما بعد، وصلت بعض التحذيرات إلى

سكرتير الحزب من أسفل، لقد حذره الرفيق إيفانوف الذي اكتشف أمر سكرتيرة المدير منذ فترة طويلة بحسه البروليتاري الحاد. ألقت صوفيا بتروفنا نظرة على العمود الصحفي التالي. قبل أن تفهم ما تقرأه شعرت فجأة بحرارة شديدة في صدرها. كانت المقالة عنها هي نفسها؛ عن صوفيا بتروفنا ودفاعها عن ناتاشا. كتب الكاتب تحت اسم مستعار (إكس) الآتي: «برزت حقيقة مدهشة في أثناء الإجتماع، وهي حقيقة في رأيي لم تحظَ بالانتباه الكافي. صارت الرفيقة ليباتوفا محامية دفاع حقيقية في أثناء الإجتماع. ترى عمَّن دافعت؟ لقد دافعت عن فرولينكو ابنة الجنرال التي سمحت لنفسها بشن هجوم فظ على السلطة السوفييتية ضد جيش العمال والفلاحين؛ الجيش الأحمر المحبوب.

من المعروف أن الرفيقة ليباتوفا تناصر فرولينكو باستمرار، وقد أتاحت لها الاستفادة بالعمل لساعات إضافية، كما إنهما تذهبان إلى السينما معًا وما إلى ذلك. على دار النشر الآن أن تُوجِّه كل قوى موظفيها الشرفاء، البلاشفة الحزبيين وغير الحزبيين، إلى القضاء في أسرع وقت ممكن على آثار إدارة جيراسيموف زاخاروف الغابرة؛ فهل من المقبول في مثل هذه اللحظات الحاسمة أن توجد شخصيات كهذه في دار النشر؟ ارفعوا راية اليقظة البلشفية كما علَّمنا قائد الشعوب العبقري الرفيق ستالين. لنستأصل كل المخربين من جذورهم، وكل العملاء السريين والظاهرين، وكل من تعاطف معهم!».

رن الجرس معلنًا نهاية استراحة الغداء. توجهت صوفيا بتروفنا إلى مكتبها. كيف لم تلحظ أن الجميع ينظرون إليها اليوم بطريقة مختلفة؟!

بعودتها إلى المنزل تشبثت بوسادتها؛ ملاذها الأخير. سرعان ما استغرقت في النوم. نامت طويلًا وحلمت بكوليا. ارتدى سترة رمادية ناعمة وحذاءَي التزلج، ثم مال بشدة وتزلج في رواق دار النشر. استيقظت. خارج النافذة بدأت آخر ألوان الشفق تتحول إلى اللون الأزرق، وأضاء النور الغرفة. وجدت ناتاشا بالقرب من الطاولة منهمكة في الحياكة. من الواضح أنها تحوك هنا منذ فترة طويلة. قالت لها صوفيا بتروفنا بصوت ضعيف، لاعقة آثار نوم فترة بعد الظهيرة الكريهة على شفتيها: - اجلسي هنا بالقرب مني.

نقلت ناتاشا مقعدها في إذعان بالقرب من مقدمة الفراش وجلست.

- أتعرفين أنهم حكموا على كوليا بعشرة أعوام؟ لا بد أن أليك قد أخبرك.

أومأت ناتاشا إيجابًا. تذكرت صوفيا بتروفنا:

- آه! أتعرفين أنهم كتبوا عني في مجلة الحائط بوصفي دافعت عن عنصر مخرِّب، وقالوا إنه لم يعد هناك مكان لمن هم مثلي؟

أجابت ناتاشا:

- لقد قبضوا على أليك. قبضوا عليه الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-14-

إذًا لم تنم صوفيا بتروفنا ليلًا، تبدو لها ساعات ودقائق النهار كلها متماثلة. يؤذي النور عينيها، وتؤلمها قدماها وينقبض قلبها. لكن إذا استطاعت النوم ليلًا، تكون أصعب لحظة تمر بها بلا شك هي اللحظة التالية للاستيقاظ مباشرةً. فتحت عينيها ورأت النافذة وظهر الفراش ورداءها على المقعد، وفي اللحظة الأولى لم تفكر في شيء عدا هذه الأغراض. لقد تعرفت عليها: النافذة - المقعد - الرداء. لكن في اللحظة التالية، وفي مكان ما داخل نطاق القلب لاح القلق، وهو أمر يشبه الألم، وعبر ضباب هذا الألم تتذكر فجأة: لقد حكموا على كوليا بعشرة أعوام، وطردوا ناتاشا، وقبضوا على أليك، وكتبوا عنها أنها تناصر عناصر مخربة.

لم تعد تتحدث مع أحد في العمل. حتى الأوراق التي يجلبونها إليها من أجل مراجعتها، تضعها الكاتبات في صمت. لم يعد أحد يتحدث معها أيضًا. تجلس إلى مكتبها وتنظر إلى أوجه الكاتبات، محاولةً أن تُخمِّن من منهن كتبت عنها هذه الكلمات في مجلة الحائط. الإحتمال الأكبر أنها إيرنا سيميونوفنا. لكن هل تستطيع أن تكتب شيئًا بهذه الطلاقة؟ ومتى رأتها مع ناتاشا في السينما؟ إنهما لم تريا من قبل.

ذات مرة، وبينما تتسكع في حزن في الرواق، اصطدمت تقريبًا بناتاشا. كانت ناتاشا تسير كالمسرنمة ([39])، أو كمن يتخبط في الظلام. سألتها صوفيا بتروفنا بخوف:

- ناتاشا، ماذا تفعلين هنا؟

أجابتها ناتاشا:

- لقد قرأت مجلة الحائط. لا تتحدثي معي. سوف يرونك.

في المساء جاءت ناتاشا إلى صوفيا بتروفنا. بدت مهتاجة، وتحدثت بلا توقف، منتقلة من موضوع لآخر. لم تسمع صوفيا بتروفنا ناتاشا تتحدث كثيرًا هكذا من قبل. في هذه المرة لم تُقبل على التطريز والحياكة. سألتها فجأة:

- ما رأيك، هل كوليا لا يزال هنا أم أنهم قد أرسلوه بعيدًا بالفعل؟

أجابتها صوفيا بتروفنا متنهدة:

- لا أعرف يا ناتاشا.

بحسب قائمة شارع شباليرنايا يأتي دوره بعد عشرين يومًا، واليوم هو العاشر فحسب.

أشاحت ناتاشا بذراعها في الهواء قائلة :

- لا أقصد ذلك، بل أقصد شعورك. هل تشعرين أنه لا يزال هنا قريبًا منا، أم ذهبوا به بعيدًا بالفعل؟ يبدو لي أنهم قد أرسلوه بعيدًا بالفعل. بالأمس شعرت فجأة أنه قد ذهب بعيدًا فعلًا، ولم يعد هنا. أتعرفين يا صوفيا بتروفنا، لقد رفضتْ عاملة المصعد أن تجعلني أصعد فيه اليوم قائلة: «لستُ ملزمة بأن أُصعِد أولئك الـ...». عليكِ يا صوفيا بتروفنا أن تفارقي دار النشر الآن، بدءًا من الغد مباشرةً. فلتعديني بأنكِ ستتركينها، فلتعديني يا عزيزتي! اتركيها غدًا، اتفقنا؟

جلست ناتاشا على ركبتيها على الأريكة التي جلست عليها صوفيا بتروفنا، وطوت يديها أمامها متوسلة، ثم جلست إلى المكتب، وإلتقطت القلم وكتبت بنفسها إلتماسًا باسم صوفيا بتروفنا. أكدت لصوفيا بتروفنا أنها يجب أن تترك العمل بإرادتها وإلا سيطردونها قطعًا بسبب علاقتها بالمخرِّبين (علاقتك بي)، وارتسمت إبتسامة على شفتيها الشاحبتين وقالت:

- وحينها لن يقبلوك في أي وظيفة أخرى.

وقَّعت صوفيا بتروفنا الالتماس. كانت قد فكرت فعلًا في ترك العمل، فقد صار الأمر مريعًا في دار النشر. صارت رؤيتها فقط لتيموفييف الأعرج ممسكًا بمجموعة المفاتيح تجعل الرعشة تدب في بدنها. قالت بحزن:

- لن أستطيع العمل في لينينجراد في كل الأحوال. سوف ينفونني. هكذا يفعلون مع كل الزوجات والأمهات.

سألتها ناتاشا، وقد حملت كتابًا من الرف، ثم وضعته في مكانه فورًا:

- ما رأيك؟ ما تفسير اعتراف كوليا؟ أنا أدرك أن بوسعهم أن يدمروا شخصًا ويشوشوه، ولكن هذا يحدث في التفاهات وحسب. لكن كيف أمكنهم أن يشوشوا إرادة كوليا حتى يجبروه على الإعتراف بجريمة لم يرتكبها؟ مهما تقولي لا يمكنني فهم ذلك. لماذا يعترفون جميعًا؟ تقول الزوجات كافة إن أزواجهن اعترفوا. هل أوقعوهم جميعًا في حبالهم؟

قالت صوفيا بتروفنا:

- كل ما في الأمر أنه لم يستطع الدفع بالغيبة. أنتِ تتناسين أنه لا يزال شابًّا يافعًا يا ناتاشا.

- ولماذا قبضوا على أليك؟

- آه يا ناتاشا لو تعرفين كم تواقح في حديثه على مسمع من الجميع في الطابور! الآن أنا على ثقة بأن كوليا قد أصابه ما أصابه بسبب كلام أليك.

استعدت ناتاشا للرحيل. في أثناء الوداع عانقت صوفيا بتروفنا بانفعال شديد. سألتها صوفيا بتروفنا:

- ماذا بكِ اليوم؟

- لا شيء. اجلسي، لا تنهضي، كم تشبهين كوليا! أقصد كوليا هو الذي يشبهك. سوف تقدمين الالتماس غدًا، أليس كذلك؟ لن تغيري رأيك، أليس كذلك؟ (سألتها وهي تنظر إلى عينيها مباشرةً) ولا تنسي أن يوم 3 في الشهر هو اليوم المخصص لحرف «ف» ([40])، وعليكِ أن ترسلي نقودًا لأليك، فهو لا يملك كوبيكًا واحدًا وعمته تخشى أن ترسل له شيئًا. أتوسل إليكِ يا عزيزتي أن تذهبي إلى الطبيب. أتوسل إليكِ، فأنتِ لا تبدين في صورة طبيعية أبدًا.

قالت صوفيا وهي تخفض عينيها الدامعتين:

- وما حاجتي إلى طبيب. إنه كوليا!

في اليوم التالي ذهبت صوفيا بتروفنا منذ الصباح إلى مكتب المدير، ووضعت استقالتها صامتةً على زجاج مكتبه. قرأ تيموفييف الاستقالة، وهز رأسه من دون أن يقول كلمة. تمت إجراءات استقالتها بسرعة غير عادية. بمرور ساعتين عُلِّق الأمر على الحائط بالفعل. بمرور ثلاث ساعات كان المحاسب المهذب قد سلَّمها بالفعل حسابها كاملًا قائلًا: «ستتركيننا؟ آه! أمر مؤسف! لا تنسي أصدقاءك القدامى!».

إنها المرة الأخيرة التي تسير فيها في هذا الرواق. قالت للكاتبات بعد أن رن الجرس حينما كن جميعًا يغطين آلاتهن الحاسبة بأغطيتها بضجة: «إلى اللقاء». أجبن جميعًا بصوت واحد كما أجبن ناتاشا سابقًا: «حظًّا سعيدًا»، بل إن واحدة منهن اقتربت من صوفيا بتروفنا وربتت على يدها بقوة. تأثرت صوفيا بتروفنا بشدة. كم هي فتاة شجاعة ونبيلة! صاحت إيرنا سيميونوفنا بمرح: «حظًّا سعيدًا»، وحينها لم يعد الشك يساور صوفيا بتروفنا في أنها هي التي كتبت عنها هذا المقال وليس أي شخص آخر.

خرجت إلى الشارع حيث ضجيج وجلبة الصيف. انتهى عملها الوظيفي؛ انتهى إلى الأبد. كانت في طريقها إلى المنزل، لكنها سرعان ما انعطفت في طريقها صوب ناتاشا. رأت في كل زوايا الشوارع من حولها صبية حاملين باقات زهور الجريس والأقحوان بأيدٍ متعرقة. كل شيء يبدو مُبهجًا، حتى الزهور تُباع. لكن نظرًا لأن كوليا في السجن، أو في طريقه إلى مكان ما في مركبة تتصاعد قعقعة عجلاتها، بدا العالم كله عبثيًّا وغير مفهوم لها.

صعدت درجات السلم. «يا إلهي! كل يوم تزداد صعوبة صعود درجات السلم أكثر فأكثر». صَعَدَت حتى الطابق الخامس، ورنت جرس الشقة. فتحت لها

جارة ناتاشا، وهي تجفف يديها في مئزرتها. قالت بهمس لكن بوضوح:

- لقد أخذوا ناتاليا سيرجيفنا إلى المستشفى. سمَّمت نفسها بالباربيتال ([41]). في مستشفى ميتشنيكوف.

تراجعت صوفيا بتروفنا، وصفقت المرأة الباب.

لم يأتِ الترام رقم 17 سريعًا. مر بالفعل ترامان رقم 9، واثنان آخران رقم 22، أما رقم 17 فلم يأتِ. أخيرًا لاح رقم 17 آتيًا ببطء، يتأخر طويلًا مع كل إشارة مرور. ظلت صوفيا بتروفنا واقفة فيه، فقد كانت كل الأماكن مشغولة، حتى الأماكن المخصصة للركاب الذين يصطحبون معهم أطفالًا، وعندما دخلت تاسع امرأة ومعها طفل لم يفسح لها أحد مكانًا. صاحت امرأة عجوز تستند إلى عكاز:

- سوف يستولون سريعًا على العربة كلها. يستقلون العربة ذهابًا وإيابًا. في أيامنا كنا نحمل الأطفال على أذرعتنا، فحمل الطفل لن يميت الأم.

ارتجت ركبتا صوفيا بتروفنا من فرط الخوف والحرارة والصيحة الشريرة للعجوز. أخيرًا خرجت من عربة الترام. لسبب ما لم يراودها شك في أن ناتاشا قد ماتت بالفعل. وَمَضَ المستشفى أمامها بكل زجاجه المغسول. خطت داخل الردهة البيضاء الباردة. رأت طابورًا مكونًا من ثلاثة أشخاص بالقرب من نافذة الاستعلامات. لم تحسم صوفيا بتروفنا أمرها بالذهاب إلى نافذة الاستعلامات من دون التقيد بدورها في الطابور. وقفت ممرضة جميلة تقدم الاستعلامات المطلوبة ترتدي ثوبًا أبيض مُنشَّى. بالقرب منها كانت هناك باقة من زهور الجريس موضوعة في كأس بالقرب من التلفون.

صاحت الممرضة في سماعة الهاتف بعد أن استمعت إلى سؤال صوفيا بتروفنا:

- ألو! ألو! في الردهة العلاجية الثانية؟

أغلقت بعدها السماعة وقالت:

- ناتاليا سيرجيفنا فرولينكو ماتت اليوم في الرابعة من دون أن تستعيد وعيها. هل أنتِ من أقربائها؟ يمكننا أن نعطيكِ تصريحًا لمشاهدة جثمان الراحلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-15-

في مساء التاسع عشر، وبعد أن ارتدت صوفيا بتروفنا معطفها الخريفي ووشاحها أسفل المعطف، وبعد أن ارتدت الكالوش، وقفت في طابور شارع نابيريجنايا. إنها المرة الأولى التي يتوجب عليها فيها أن تقضي الليل كله في الطابور، فمن يمكن أن يحل محلها الآن؟ لم تعد ناتاشا موجودة، ولا أليك.

رافقت صوفيا بتروفنا وحدها نعش ناتاشا المصنوع من خشب الصنوبر عبر المدينة كلها وصولًا إلى المقابر. في هذا اليوم هطلت الأمطار بشدة، ونثرت عجلات العربة المتهالكة الطين في وجهها.

استلقت ناتاشا في المقبرة؛ في التربة الصفراء، في مكان لا يبعد عن فيودور إيفانوفيتش. أين أليك وكوليا؟ لا يمكن اكتشاف ذلك.

ظلت واقفة في طابور نابيريجنايا طوال الليل متكئة على حاجز بارد. هبت برودة رطبة من نهر النيفا. هنا رأت صوفيا بتروفنا شروق الشمس لأول مرة في حياتها. أشرقت من مكان ما من خلف نهر أوختا، وسرعان ما جرت موجات صغيرة كما لو أن يدًا تمسد على الصوف.

قرابة الصباح سرى الخدر في ساقَي صوفيا بتروفنا من فرط الإنهاك، ولم تعد تشعر بهما بتاتًا، وفي التاسعة حينما تزاحم الجمع على أبواب السجن، لم تستطع صوفيا بتروفنا أن تركض وتزاحمهم، فقد صارت قدماها ثقيلتين، وبدا لها أن عليها أن تمسك قدميها بيديها لتحركهما من مكانهما.

في هذه المرة كان رقمها 53. بمرور ساعتين وصلت إلى النافذة الصغيرة ومدت يدها بالنقود وقالت الاسم. نظر الموظف السمين والناعس إلى إحدى البطاقات، وبدلًا من أن تسمع منه الإجابة المعتادة «غير مسموح له»، أجابها: «نُفِي». بعد حديثها مع تسفيتكوف صارت صوفيا بتروفنا مستعدة تمامًا لسماع هذه الإجابة، وبالرغم من ذلك صعقتها.

سألته ذاهلةً:

- إلى أين؟

- سوف يكتب لكِ بنفسه. التالي!

عادت إلى المنزل سيرًا، لأن الوقوف وانتظار الترام كان أصعب عليها من السير. نضح الغبار بالحرارة، وفكت أزرار المعطف الثقيل، كما فكت الوشاح أيضًا. بدا لها المارة وكأنهم قد نسوا كيف يسيرون، فصاروا يتخبطون بها؛ تارة من الأمام وتارة من الجانب.

كوليا سوف يكتب لها. سيصلها خطاب مجددًا كما وصلها سابقًا من سفيردلوفسك. ما داموا قالوا لها من النافذة الصغيرة إنه سيكتب لها، فلا بد أنه سيكتب لها.

في الأيام التالية كلها، كانت صوفيا بتروفنا تخرج منذ الصباح الباكر بحثًا عن عمل، من دون أن تتناول إفطارها أو ترتب فراشها. كان هناك الكثير من الإعلانات عن وظائف في الصحف: «مطلوب كاتبة». صارت قدماها كركيزتين، لكنها كانت تسير مذعنة طوال اليوم، وتمضي إلى كل العناوين المذكورة. سألوها السؤال ذاته في كل الأماكن: هل لديك أي شخص قد تم إيقافه؟ في البداية لم تفهم. وضحوا لها: هل تم القبض على أيٍّ من أقاربك؟ خافت من الكذب فقالت: ابني. حينها يقولون لها إنه ليست هناك فرص عمل متاحة. لم تجد صوفيا بتروفنا فرصة عمل في أي مكان. الآن صارت تخشى الجميع وتخاف من كل شيء؛ صارت تخشى البوَّاب الذي ينظر إليها بلا مبالاة، وتبدو نظرته قاسية في كل الأحوال. صارت تخشى مدير البناية الذي توقف عن الانحناء بالتحية لها، ولم تعد مديرة الشقة، فقد اختاروا زوجة المحاسب بدلًا منها. صارت تخشى زوجة المحاسب خشيتها من النار. صارت تخشى فاليا أيضًا، وتخاف المرور بالقرب من دار النشر. بعودتها إلى المنزل بعد المحاولات غير المجدية لإيجاد عمل، صارت تخشى النظر إلى الطاولة في غرفتها، فربما تجد مذكرة ما من الميليشيا. لا بد أنهم سيستدعونها هناك حتى يأخذوا منها جواز سفرها وينفوها، أليس كذلك؟ صارت تخشى كل جرس لئلا يكونوا قد جاءوا من أجل مصادرة ملكيتها.

خافت أن تنقل مالًا لأليك. في عشية يوم 30، وبينما تشق طريقها إلى الطابور، اقتربت منها كيباريسوفا. لم تكن كيباريسوفا تذهب إلى الطابور في يومها وحسب، بل تذهب كل يوم تقريبًا لتعرف من النساء الواقفات مَن الذي نفوه ومَن الذي لا يزال هنا، وهل تغير الجدول أم لا.

همست كيباريسوفا في أذن صوفيا بتروفنا عندما حكت لها الأخيرة الهدف من مجيئها:

- لا جدوى مما تفعلينه، لا جدوى إطلاقًا. بهذه الطريقة سترتبط قضية ابنك بقضية صديقه، وستكون النتيجة سيئة. المادة رقم 58 الفقرة رقم 11: المنظمات المعادية للثورة... لا أفهم لماذا تفعلين ذلك!

عارضتها صوفيا بتروفنا بحذر:

- لكنهم لا يسألون عن اسم المرسِل، بل يسألون فقط عن المرسَل إليه.

أخذتها كيباريسوفا من يدها، وابتعدتا عن الناس. قالت لها همسًا:

- إنهم لا يحتاجون إلى مثل هذا السؤال، فهم يعرفون كل شيء.

كانت عيناها كبيرتين، بندقيتَي اللون، ناعستين.

عادت صوفيا بتروفنا إلى منزلها.

في اليوم التالي لم تنهض من على فراشها. لم يكن لديها ما تنهض من أجله. لم تُرِد أن تغير ثيابها وترتدي جواربها وتُخرِج قدميها من الفراش. لم يزعجها فوضى الغرفة والغبار... فلتدعها كذلك! لم تشعر بالجوع. ظلت مستلقية على الفراش، لا تفكر في شيء بعينه، ولا تقرأ شيئًا. منذ فترة طويلة والروايات لم تعد تسليها، فلم تعد تستطيع أن تنقطع عن حياتها لثانية واحدة وتُركِّز في شيء غريب. صارت الصحف تبعث فيها شعورًا بهلع غامض، فقد كانت كلماتها على طراز الكلمات التي تقرأها في مجلة الحائط «طريقنا». في أحيان قليلة، تُنحَّي دثار الفراش وغطاءه، وتنظر إلى قدميها اللتين صارتا ضخمتين ومتورمتين كما لو أنهما منقوعتان في الماء.

عندما يفارق الضوء الحوائط ويحل المساء تتذكر خطاب ناتاشا. إنه موجود تحت وسادتها دائمًا. أرادت صوفيا بتروفنا أن تعيد قراءته. استندت إلى مرفقيها وأخرجته من الظرف.

«عزيزتي صوفيا بتروفنا، لا تبكي عليَّ، فلم يعد أحد في حاجة إليَّ. الأمر هكذا أفضل. ربما تنتهي الأمور كلها بخير، ويعود كوليا إلى المنزل، لكن لم يعد بوسعي الانتظار حتى تنصلح الأمور. في الوقت الحالي لا أستطيع فهم السلطة السوفييتية. أما أنتِ فعيشي حتى يحل الوقت الذي يمكن فيه أن ترسلي له الطرود، فسيكون في حاجة إليها. أرسلي له سلطعونًا ومربى الفاكهة، فهو يحبهما. أُقبِّلك بشدة وأشكرك على كل شيء، وعلى كلماتك عني في الإجتماع. أشعر بالأسف على ما تعانينه من أجلي. فليذكرك المفرش الذي حِكته لكِ بي. أتتذكرين كيف كنا نذهب معًا إلى السينما؟ عندما يعود كوليا ضعي المفرش على الطاولة أمامه، فألوانه ساطعة ومبهجة. قولي له إني لم أصدق عنه أي شيء سيئ قَطُّ».

أعادت صوفيا بتروفنا الخطاب إلى مكانه تحت وسادتها. ألا يجب أن تمزقه؟ لقد ذكرت فيه شيئًا عن النظام السوفييتي الراهن. ماذا لو وجدوا هذا الخطاب؟ حينما يربطون بين قضيتَي كوليا وناتاشا، ما الذي سيتبقى حينها؟ لقد ماتت ناتاشا فعلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-16-

مرت ثلاثة أشهر، ثم ثلاثة أشهر أخرى. حل الشتاء وشهر يناير الذي هو الذكرى السنوية لاعتقال كوليا. بعد بضعة أشهر ستحل ذكرى القبض على أليك، وبعدها مباشرةً ذكرى موت ناتاشا.

ستزور صوفيا بتروفنا مقبرة ناتاشا في اليوم الموافق لذكرى موتها، أما اليوم الموافق للقبض على كوليا فلن تذهب إلى مكان، فهي لا تعرف أين هو.

لم يصلها خطاب من كوليا. اعتادت صوفيا بتروفنا أن تتفحص صندوق البريد من خمس إلى عشر مرات. أحيانًا تجد في صندوق البريد صحفًا من أجل زوجة المحاسب أو بطاقات بريدية لفاليا من فرسانها الكثيرين، لكنها لم تجد خطابًا لها.

إنه العام الثاني وهي لا تعرف أين هو ولا كيف هي أحواله. هل مات؟ هل خطر يومًا على بالها أن يومًا سوف يحل عليها لا تعود تعرف فيه ما إذا كان كوليا حيًّا أم ميتًا؟

عادت لتعمل. أنقذتها مقالة كولتسوف في جريدة الـ«برفدا» من الموت جوعًا. بعد بضعة أيام على صدور هذه المقالة الرائعة عن الافتراءات والمفترين المسيئين لمواطنين سوفييت شرفاء، قبلوا صوفيا بتروفنا في وظيفة بإحدى المكتبات. لم تكن الوظيفة دائمة بل فرصة عمل مؤقتة، لكنها فرصة عمل في كل الأحوال. عليها أن تكتب في دفتر المكتبة الخاص بطاقات التصنيف لمدة أربع ساعات في اليوم مقابل 120 روبلًا شهريًّا. لم يقتصر الأمر على أنها لم تكن تتحدث مع أحد في عملها الجديد، لكنها لم تكن تُلقي على أحد التحية عند الحضور أو الانصراف. تقضي الساعات الأربع منحنية على طاولة مليئة بالكتب، مرتدية نظارتها بشعر قصير أشيب يتساقط فوق عدستَي النظارة، ثم تنهض وترتب البطاقات في كومة، وتأخذ عصا ذات رأس مطاطي موضوعة دائمًا بالقرب من مقعدها، وتغلق الخزانة على البطاقات، وتخرج ببطء من دون أن تنظر لأحد.

ارتفع عمود كامل من السلطعون المعلب على حافة النافذة في غرفة صوفيا بتروفنا وصرَّت الحبوب تحت قدميها، ففي كل يوم تقريبًا تذهب بعد العمل لتشتري المزيد والمزيد من المنتجات الغذائية. اشترت مربى الفاكهة وسمنًا وتفاحًا مجففًا وشحم خنزير. يجد المرء ما يكفي من هذه المنتجات في المتاجر، ولكن حينما يرسل كوليا خطابه يمكن لشيء منها أن يختفي. في أحيان أخرى في الصباح الباكر تذهب صوفيا بتروفنا قبل موعد عملها إلى نواحي قناة أوبفودني حيث سوق الأغراض القديمة. تشتري بعد مساومات

شديدة قبعة ذات أذنين وجوارب حريرية. في أوقات المساء، في أثناء جلوسها في غرفتها القذرة التي لم تدفئها، تنهمك في حياكة المزيد والمزيد من الخرق والحقائب والأكياس. ستحتاج إليها عندما ترسل الطرود. تبرز من تحت فراشها صناديق خشبية من مختلف الأحجام.

إنها الآن لا تأكل شيئًا تقريبًا، تشرب الشاي فقط ومعه الخبز. لم تعد تريد تناول الطعام، ولم يكن معها المال على أي حال، فشراء الطعام الذي سترسله يُكلِّفها الكثير. لا تشعل نيران المدفأة إلا مرتين أسبوعيًّا في غرفتها بدافع الإقتصاد. لذلك تجلس دائمًا في المنزل بمعطفها الصيفي القديم وبالأكمام. عندما تشعر ببرودة شديدة تدس نفسها في الفراش. لم يكن هناك ما يدعوها إلى ترتيب الغرفة الباردة، فلم تعد تبالي بأن تكون الغرفة باردة وغير مريحة، ولم تعد صوفيا بتروفنا تنظف الأرض وتزيل الغبار إلا من على كتب كوليا والراديو والعجلة المسننة.

في أثناء استلقائها على الفراش تفكر في كتابة خطاب آخر إلى الرفيق ستالين. منذ أن قبضوا على كوليا كتبت ثلاثة خطابات إلى الرفيق ستالين. طلبت في خطابها الأول إعادة فحص قضية كوليا والإفراج عنه لأنه غير مذنب في شيء. في الخطاب الثاني طلبت أن تعرف أين هو تحديدًا حتى تستطيع أن تسافر إليه وتراه مرة أخرى قبل الموت. في الخطاب الثالث توسلت أن يخبروها شيئًا واحدًا: هل كوليا لا يزال حيًّا أم لا. لكن ردًّا لم يصلها. وضعت الخطاب الأول ببساطة في صندوق البريد، وسلَّمت الثاني بأمر مسجل، والثالث بإيصال تأكيد الاستلام. وصلها تأكيد الاستلام بعد بضعة أيام، وفي مكان توقيع المستلم مكتوب بحروف صغيرة كتابة غير مفهومة: «... إيريان».

من هذا الإيريان؟ هل وصل الخطاب إلى الرفيق ستالين؟ مكتوب على الظرف: «خاص وشخصي».

واظبت صوفيا بتروفنا على الذهاب كل ثلاثة أشهر تقريبًا إلى أحد مكاتب الاستشارات القانونية. من الجيد التحدث مع محامي الدفاع فهم مهذبون وليسوا مثل المدعين العموميين. هناك أيضًا طابور لكن أمره هين، لا يستغرق أكثر من ساعة. تنتظر صوفيا بتروفنا بصبر، جالسة على مقعد في الرواق الصغير، متكئة بذراعيها وذقنها على عصاها. لكنها تنتظر عبثًا، فكل محامي دفاع تلتقي به يوضح لها بأدب أنه للأسف الشديد ليست هناك طريقة لمساعدة ابنها إلا إذا انتقلت قضيته إلى المحكمة.

ذات مرة، وكان ذلك بعد مرور عام وشهر وأحد عشر يومًا على القبض على كوليا، دخلت كيباريسوفا غرفة صوفيا بتروفنا. لم تقرع الباب أولًا، ودخلت لاهثة بشدة وارتمت على المقعد. نظرت إليها صوفيا بتروفنا بدهشة. خشيت

كيباريسوفا أن يربطوا بين قضية إيفان إيجناتيفيتش وقضية كوليا، ولذلك لم تَزُر صوفيا بتروفنا من قبل. وها هي تأتي فجأة وتجلس. قالت كيباريسوفا بصوت أجش:

- يفرجون عن البعض. رأيت للتو بعينَي في الطابور أحد المفرج عنهم وقد جاء من أجل وثائقه. لم يكن نحيفًا، لكن وجهه فقط هو الذي بدا شاحبًا. أحطنا به جميعًا وسألناه: كيف كانت الأحوال هناك؟ لم يُجِب بشيء.

تبادلت كيباريسوفا وصوفيا بتروفنا النظرات. نهضت كيباريسوفا قائلة:

- حسنًا، سأذهب. لقد حجزت دورًا في طابور المدعي العام. لا تتبعيني رجاءً، حتى لا يرانا أحد في الرواق معًا.

يفرجون عنهم! يفرجون عن البعض! يخرجون من البوابات الحديدية ويعودون إلى منازلهم! ربما يفرجون عن كوليا الآن إذن! سيرن الجرس ويدخل كوليا. أو ربما يرن الجرس ويأتي ساعي البريد وإذا ببرقية من كوليا. نعم، فكوليا ليس هنا بل في مكان بعيد، وسيرسل برقية من الطريق.

خرجت صوفيا بتروفنا إلى السلم وفتحت صندوق البريد. إنه فارغ؛ فارغ كعادته. ظلت صوفيا بتروفنا تنظر إلى جداره الأصفر لبرهة كما لو أنها تأمل أن تجلب نظرتها البرقية من جدار الصندوق. ما إن عادت إلى غرفتها، وقبل أن تستغرق في حياكة الحقائب المتتابعة التي انخرطت في حياكتها منذ فترة، وجدت باب غرفتها ينفتح مجددًا من دون طرق، وإذا بها زوجة المحاسب ومن خلفها مدير البناية.

لم تُلقِ الممرضة التحية، وكذلك لم يفعل مدير البناية. قالت الممرضة فورًا، مشيرة إلى الكيروسين وبابور الجاز (البريموس):

- أترى؟ لقد أنشأت مطبخًا كاملًا هنا. لطخت السقف كله بالسخام والقذارة. إنها تقضي على نظام الشقة. لا تريد أن تلتقي بالآخرين في المطبخ في أثناء الطهو، وتتجنب الجميع منذ أن اتهمناها بسرقة الكيروسين بانتظام. ابنها في معسكر اعتقال، وقد اكتشفوا أنه عدو للشعب، وهي هنا بلا أي مشاغل. إنها عنصر مثير للشبهات.

قال مدير البناية لصوفيا بتروفنا:

- أنتِ أيتها المواطنة ليباتوفا. انقلي أدواتك إلى المطبخ فورًا وإلا أبلغت الميليشيا.

غادرا. نقلت صوفيا بتروفنا البريموس والكيروسين والمنخل والأواني إلى مكانها السابق في المطبخ، ثم استلقت على الفراش وتنهدت بعمق. قالت

جهرًا: «لم أعد أحتمل المزيد. لم أعد أحتمل المزيد». لم تستطع أن تتمالك نفسها، وقالت مجددًا بصوت مرتفع وبوضوح: «لا أستطيـــع تحمل المزيد». نطقت هذه الكلمات بقوة وإصرار، كما لو أن شخصًا يقف أمامها ويؤكد لها العكس «لا، لا أستطيع. لا أستطيع تحمل المزيد».

دخلت زوجة رجل الميليشيا إلى غرفتها. همست وهي تدثر صوفيا بتروفنا:

- لا تصيحي! اسمعي ما سأقوله لكِ. إنهم لا يتصرفون بصورة قانونية. يقول زوجي ما داموا لم يطردوكِ من الشقة فهذا يعني أن لا أحد لديه الحق في مضايقتك. لا تبكي! يقول زوجي إنهم يطلقون سراح الكثيرين الآن. إن شاء اللّه سوف يعود نيكولاي فيودوروفيتش سريعًا. سوف تتزوج ابنتها قريبًا، ولذلك تضع أمها عينها على غرفتك. لكن لا ترحلي، هذا كل ما في الأمر. الأم تنظر إلى مصلحة ابنتها، ومدير البناية ينظر إلى مصلحة عشيقته. لذا دعيهم يقاتلون، ولا تبكي! إنني أقول لكِ الحقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-17-

في الشتاء، تكاد أصوات الشارع لا تصل إلى الغرفة ليلًا من خلال الهياكل المزدوجة للنوافذ. لذلك تظل صوفيا بتروفنا تسمع صريرًا ودمدمة آتيتين من داخل الشقة طوال الليل. تواصل الفئران الكشط بعناد. عسى فقط ألا تقترب من شحم الخنزير الذي اشترته من أجل كوليا! تصر ألواح الأرضية في الرواق، وعندما تعبر شاحنة في الشارع بالقرب من البناية تهتز الأبواب الأمامية. في غرفة المحاسب تدق الساعة كل ربع ساعة بصوت مرتفع.

كوليا سيعود قريبًا. في هذه الليلة تحديدًا لم يعد الشك يراود صوفيا في أن كوليا سيعود قريبًا.

يقول كل من كيباريسوفا وديجتيارينكو رجل الميليشيا إنه لا بد وأن يعود سريعًا، فإذا لم يعد قريبًا فلا بد أنه مات. ما داموا بدأوا يطلقون سراح الأبرياء، سيطلقون سراح كوليا إذن. من غير المعقول أن يطلقوا سراح أناس آخرين ولا يطلقون سراحه. سيعود كوليا، وكم ستشعر الممرضة حينها بالخزي! كيف سيشعر مدير البناية وفاليا؟ لن يستطيعوا حتى رفع أعينهم لينظروا إليه، ولن ينظر إليهم كوليا أو حتى يحييهم. سيمر بالقرب منهم كما لو أنه يمر بالقرب من الحائط. عندما يعود سيوفرون له وظيفة مهمة، بل وسيمنحونه ميدالية ليكفروا عن ذنبهم في حقه. سوف يعلق الميدالية على صدره، ولن يقف لتحية الممرضة وفاليا.

قرابة الصباح نامت صوفيا بتروفنا، ولم تستيقظ إلا في ساعة متأخرة؛ في العاشرة. بعد أن استيقظت تذكرت أن شيئًا جيدًا قد حدث بالأمس، فقد عرفت خبرًا جيدًا عن كوليا. نعم، لقد بدأوا يطلقون سراح البعض من السجون، وهذا يعني أن كوليا سوف يعود سريعًا، وكذلك أليك، وسيعود كل شيء ليكون على ما يرام كما كان سالفًا. فوجئت صوفيا بتروفنا بنفسها تفكر في أن ناتاشا أيضًا سوف تعود! لا، ناتاشا لن تعود، ولكن لا بد أن كوليا عائد الآن بالفعل إلى البيت، وربما تقترب عربة القطار الآن من المحطة.

بعدما عادت في هذا اليوم من عملها في المكتبة، توقفت صوفيا بتروفنا أمام واجهة متجر للبيع بالعمولة ([42]) طويلًا. رأت خلف واجهة العرض كاميرا من طراز لايكا. ظل كوليا يحلم دائمًا بهذه الكاميرا. سيكون من الرائع لو باعت شيئًا لديها واشترت بثمنه هذه الكاميرا لكوليا لحين يوم عودته. سوف يتعلم كوليا التصوير سريعًا، فهو ماهر وذكي جدًّا.

ظلت صوفيا بتروفنا طوال هذا اليوم في حالة معنوية مرتفعة وشعرت بالسرور، بل إنها شعرت للمرة الأولى منذ فترة طويلة بالرغبة في تناول

الطعام. مكثت في المطبخ لتُقشِّر البطاطس. آه لو تستطيع شراء الكاميرا لكوليا! لكن المشكلة هي أين سيُحمِّض الصور. سيكون في حاجة إلى غرفة مظلمة تمامًا. يمكنه أن يفعل ذلك في غرفة التخزين بالطبع. صحيح أنها مليئة بالحطب ولكن يمكن تنظيف المكان. يمكنها أن تأخذ بعض الحطب إلى غرفتها، وتطلب من زوجة ديجتيارينكو أن تأخذ بعضه أيضًا إلى غرفتها، ولن ترفض، وبذلك يُجهَّز المكان. سوف يُصوِّر كوليا كل شيء؛ يصور صوفيا بتروفنا والتوائم والشابات اللاتي يعرفهن، لكنه لن يُصوِّر أبدًا فاليا والممرضة مهما عرضا عليه. سيصنع ألبومًا كاملًا، ولن تكون هناك صورة واحدة لفاليا والممرضة. سألت صوفيا بتروفنا زوجة ديجتيارينكو عندما دخلت الأخيرة المطبخ لتجلب المكنسة: - هل لديك حطب كثير في غرفة التخزين؟

- ثلاث حزم.

- هل تحبين التصوير؟ لقد أحببته جدًّا في شبابي، بشرط أن يصوّرني مصور محترف بالطبع. هل تعرفين أنهم سوف يطلقون سراح كوليا قريبًا؟

صاحت زوجة ديجتيارينكو، وأسقطت المكنسة:

- حقًّا! أرأيت؟! كدت أن تقتلي نفسكِ حزنًا. (قبَّلت صوفيا بتروفنا على وجنتيها) هل أرسل لكِ خطابًا أم برقية؟

- خطابًا. لقد وصلني للتو خطاب مسجل.

- لم ألحظ مجيء ساعي البريد. توشك بوابير الجاز البريموس على إصابتي بالصمم تمامًا.

ذهبت صوفيا بتروفنا إلى غرفتها وجلست على الأريكة. أرادت أن تمكث في الظلام وتستريح من كلماتها وتفهمها. لقد أطلقوا سراح كوليا. نعم، أطلقوا سراح كوليا. نظرت إلى المرآة وإذا وجه مجعد عجوز بشعر أشيب رمادي. هل سيعرفها ابنها كوليا عندما يعود؟ حدَّقت في قاع المرآة حتى اختلط كل شيء ولم تعد تدري أين الأريكة الحقيقية وأين انعكاسها. قالت في المكتبة لزميلتها في العمل التي جلست لتكتب إحدى البطاقات على طاولة واحدة معها: - أتعرفين؟ لقد أطلقوا سراح ابني من السجن.

حتى هذه اللحظة لم تكن زميلتها قد سمعت منها كلمة واحدة، ولم تعرف صوفيا بتروفنا حتى اسمها. لكنها كانت في حاجة إلى تكرار هذه التعويذة. أجابتها زميلتها، وكانت امرأة غير مهندمة، وسمينة، ومغطاة بالشعر ورماد السجائر: - حقًّا؟! ربما لم يكن ابنكِ مذنبًا إذن ولذلك سيطلقون سراحه. في بلادنا لا يقبضون على الناس هكذا من دون سبب. وهل استمر مسجونًا لفترة طويلة؟

- عام وشهران.

أجابتها المرأة السمينة، وقد أطفأت سيجارتها:

- حسنًا، اكتشفوا الأمر إذن وأطلقوا سراحه.

في المساء إلتقت صوفيا بتروفنا في رواق الشقة برجل الميليشيا ديجتيارينكو، وحيَّاها. قال وهو يصافحها مبتسمًا إبتسامة عريضة: - سوف تقيمين حفلة! متى سيأتي نيكولاي فيدوروفيتش ليرى أمه؟

- سيعمل لشهر أو اثنين في المصنع ثم يذهب إلى القرم ليستريح. كم هو في حاجة ماسة إلى الراحة! بعدها سيأتي إليَّ، أو ربما أسافر إليه.

هكذا أجابته صوفيا بتروفنا وقد اندهشت هي نفسها من السهولة التي تتحدث بها.

لقد صارت في حالة من الحماسة الفرحة، وحتى ساقاها الآن تسيران بسرعة أكبر من السابق. أرادت أن تقول لأي شخص في كل دقيقة: «أتعرف؟ لقد أطلقوا سراح كوليا!»، لكنها لم تجد أحدًا لتخبره. في المساء ذهبت إلى المتجر لشراء الخبز، وإلتقت بالمحاسب اللطيف العامل في دار النشر. لو كانت قد رأته منذ يوم واحد لعبرت إلى الجهة المقابلة لتتفادى لقاءه، لأن كل ما يُذكِّرها بعملها في دار النشر يجلب لها ألمًا. لكنها الآن ابتسمت له بلطف. انحنى لها بالتحية بأدب وسألها فورًا: - هل سمعتِ آخر أخبارنا؟ لقد قبضوا على تيموفييف.

ارتبكت صوفيا بتروفنا وقالت:

- كيف ذلك؟ بالرغم من... بالرغم من كل شيء، فإنه كشف كل المخرِّبين.

هز المحاسب كتفيه قائلًا:

- وها هو شخص آخر قد كشفه.

همست صوفيا بتروفنا:

- أتعلم؟ أنا مسرورة الآن، لقد أطلقوا سراح ابني.

- أهكذا؟ تقبلي تهنئتي، لم أكن أعرف أن ابنك قد تم القبض عليه.

قالت صوفيا بتروفنا بمرح:

- نعم، قبضوا عليه، ولكنهم أطلقوا سراحه.

ثم ودَّعت المحاسب.

بعودتها إلى المنزل، نظرت بصورة تلقائية إلى صندوق البريد. فارغ. لا خطابات. خفق قلبها كما يخفق دائمًا حينما تجد الصندوق فارغًا. لم يصل سطر واحد طوال عام. ألم يكن بإمكانه حقًّا أن يرسل خطابًا مع أحد؟ عام وشهران من دون أن تصلها أخبار عنه. أيكون قد مات؟ هل هو حي؟

استلقت على الفراش وشعرت أنها لن تنام أبدًا. أخذت جرعة مضاعفة من الباربيتال ونامت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-18-

في الصباح التالي قالت صوفيا بتروفنا في المطبخ:

- لقد وصلني اليوم خطاب آخر. هل تتصوروا ما حدث؟ لقد عيَّن مدير المصنع ابني مساعدًا له. صار بمثابة ذراعه اليمنى. اشترت له النقابة العمالية المحلية تذكرة للذهاب إلى القرم. الطبيعة هناك ساحرة. لقد ذهبت إلى هناك في شبابي. عندما يعود سوف يتزوج من فتاة كومسمولية، اسمها لودميلا. اسمها جميل، أليس كذلك؟ سوف أدعوها ميلوتشكا. ظلّت في انتظاره عامًا بطوله، بالرغم من أن آخرين قد تقدموا إليها بطلب الزواج. لم تصدق قَطُّ أي شيء سيئ عن كوليا. (نظرت صوفيا بتروفنا ببهجة النصر إلى زوجة المحاسب الواقفة بالقرب من بابور الجاز البريموس). فور أن يعود من القرم سوف يتزوج بها.

قالت زوجة ديجتيارينكو:

- هذا يعني أنكِ ستعتني قريبًا بأحفادك.

ظلت الممرضة ساكنة، ولم ترفع حتى حاجبًا. لكن بمرور دقيقة، وبعد أن ذهبت صوفيا بتروفنا إلى غرفتها لتجلب بعض الملح، وعادت مجددًا إلى المطبخ قالت لها الممرضة:

- مرحبًا.

وكأنها تراها اليوم للمرة الأولى. كانت أول تحية تلقيها عليها منذ عام كامل.

كان اليوم عطلة لصوفيا بتروفنا، وقد قررت أن ترتب غرفتها. حتى إذا كان كوليا لم يتم الإفراج عنه بعد، لكن من المؤكد أنه سيُفرج عنه في أي دقيقة. سيصل ويجد الغرفة في هذه الحالة الخربة. بعد أن ألقت صوفيا بتروفنا نظرة سريعة على نفسها في المرآة قررت أنها في حاجة إلى العناية مجددًا بشعرها، وإلا ظلت هذه الخصل الرمادية تتدلى منه بإهمال. يجب على المرأة أن تعتني بنفسها حتى آخر يوم في حياتها. جذبت الصناديق من تحت الفراش وأشعلت الموقد. تَوقَّد الخشب بصورة رائعة، وأصدر طقطقات مبهجة. أخذت صوفيا بتروفنا تفكر أين تضع المعلبات حتى لا تتأرجح فوق حافة النافذة، لماذا لديها الكثير من العلب؟ إذا احتاجت إليها يمكنها أن تشتريها من المتجر.

قررت أن تنظف النافذة والأرضية. آلمتها قدماها كالمعتاد وكذلك خاصرتها، ولكن ما باليد حيلة؛ عليها أن تتحمل. مزقت الأكياس.

عليها أن تنفض السجادة حتى تَسخن المياه. جذبت صوفيا بتروفنا السجادة إلى حافة النافذة. لاح شيء ما معتم داخل صندوق البريد. مضت صوفيا

بتروفنا بتثاقل لتجلب المفتاح.

وجدت خطابًا في الصندوق. كان الظرف ورديًّا وخشنًا. قرأت عليه: «صوفيا بتروفنا ليباتوفا». رأت اسمها مكتوبًا بخط مجهول لها، وليس هناك عنوان ولا طابع بريدي.

اندفعت صوفيا بتروفنا ونسيت تمامًا السجادة على إطار النافذة. تساءلت: من المرسِل؟

ما إن قرأت صوفيا بتروفنا: «ماما العزيزة» بخط كوليا، حتى سقطت منها الورقة على ركبتيها، وقد أذهلها أن ترى هذا الخط.

«ماما العزيزة. أنا حي، وقد تعهد أحد الرجال الطيبين بإرسال هذه الرسالة إليكِ. كيف حالكِ؟ أين أليك؟ وأين ناتاليا سيرجيفنا؟ أفكر فيكم طوال الوقت يا أعزائي. يريعني التفكير في أن تكوني قد فارقتِ المنزل وتعيشين في مكان آخر الآن. كل آمالي معلقة عليكِ يا ماما. تستند إدانتي إلى شهادة ساشكا يرتسيف. أتذكرين هذا الصبي الذي كان في صفي الدراسي؟ أعلن ساشكا يرتسيف لهم أنه قد ورَّطني في الإشتراك في منظمة إرهابية، وكان عليَّ أنا أيضًا أن أعترف. لكن هذا غير حقيقي، ولم أنضم إلى أي منظمة إرهابية. ماما، لقد ضربني المحقق يرشوف ووطئني بقدميه، والآن لا أستطيع أن أسمع إلا بأذن واحدة. كتبت من هنا بيانات كثيرة، لكن ردًّا لم يصلني على أيٍّ منها. اكتبي أنتِ باسمي، وقولي لهم إنكِ أُمٌّ عجوز، ووضِّحي لهم الحقائق كلها في الخطاب. أنتِ تعلمين أني لم أرَ ساشكا يرتسيف منذ أن أنهينا المدرسة ولا لمرة واحدة، فقد إلتحق بمعهد آخر. حتى في أثناء المدرسة لم أصادقه قَطُّ. لقد ضربوه هو أيضًا بشدة. أُقبِّلكِ بقوة، وسلامي لأليك ولناتاليا سيرجيفنا. ماما العزيزة، أرسلي الخطاب بسرعة، لأني لا أستطيع البقاء حيًّا لمدة طويلة هنا.

أُقبِّلكِ بشدة.

ابنكِ كوليا»

ألقت صوفيا بتروفنا معطفها على كتفيها، وقبعتها المجعدة فوق رأسها، وهرعت إلى كيباريسوفا وهي لا تزال تمسك بخرقة التنظيف القذرة في يدها. لقد خشيت أن تنسى رقم شقة كيباريسوفا ولا تجدها. دسَّت الخطاب في جيبها، ولم تأخذ معها العصا، وركضت متشبثة بالجدران. قادتها قدماها، ولكن مهما أسرعت تجد أن شقة كيباريسوفا لا تزال بعيدة.

أخيرًا تدخل من الباب الأمامي، وتصعد إلى الطابق الثالث بآخر ما تبقى لها من قوى. «أظن أن الشقة هنا. نعم هنا! كيباريسوفا م. إ. رنة واحدة».

فتحت لها فتاة ثم ركضت. شقَّت صوفيا بتروفنا طريقها عبر الرواق المظلم بالقرب من الخزائن. فتحت صوفيا بتروفنا أحد الأبواب عشوائيًّا ودخلت.

وجدت كيباريسوفا جالسة بمعطفها، والعصا في يدها، في منتصف الغرفة على أحد الصناديق. كانت الغرفة فارغة. ليس هناك مقعد أو طاولة ولا فراش ولا ستارة، واقتصر الأمر على وجود تلفون على الأرض بالقرب من النافذة. ارتمت صوفيا بتروفنا على صندوق آخر بالقرب من العجوز.

قالت كيباريسوفا من دون أن تبدي أي تعجب من ظهور صوفيا بتروفنا، ومن دون أن تحييها:

- سوف ينفوني. سأغادر غدًا صباحًا. بعت كل شيء وسأرحل غدًا. نفوا زوجي بالفعل. حكموا عليه بـ15 عامًا. لقد رتَّبت أموري كما ترين. لم يعد لدي فراش لأنام عليه، وسأستلقي هذه الليلة على صندوق.

مدَّت لها صوفيا بتروفنا خطاب كوليا.

استغرقت كيباريسوفا وقتًا طويلًا في القراءة، ثم وضعت الخطاب في جيب معطف صوفيا بتروفنا. همست لها:

- تعالي إلى الحمام. هنا تلفون، ولا يمكن أن نتحدث بالقرب منه. لقد وضعوا فيه هذه القطعة البلاستيكية الصغيرة، ويستحيل الآن أن نتحدث عن شيء. كل كلمة مسموعة.

قادت كيباريسوفا صوفيا بتروفنا، وأغلقت الباب بالكلَّاب وجلست على طرف حوض الاستحمام. جلست صوفيا بتروفنا إلى جانبها.

- هل كتبتِ بيانًا بالفعل؟

- لا.

همست لها كيباريسوفا وقد قرَّبت عينيها الكبيرتين الصفراوين إلى وجه صوفيا بتروفنا:

- لا تكتبي شيئًا. لا تكتبي شيئًا من أجل ابنكِ. مثل هذا البيان لن يجعلهم يشفقون عليه أو عليكِ. هل يمكن كتابة بيان يقول إن المحقق قد اعتدى عليه؟ مجرد التفكير في أمرٍ كهذا، لا كتابته، مستحيل. لقد نسوا أن ينفوكِ، وإذا كتبتِ لهم هذا البيان ستُذكِّرينهم، كما أنهم سينفون ابنكِ إلى مكان أبعد أيضًا. من الذي جلب لكِ هذا الخطاب؟ وأين هم الشهود على ذلك؟ وكيف تستطيعين إثبات ذلك من الأساس؟ (نظرت إلى حوض الاستحمام بعينين مهتاجتين) لا، بحق اللّه لا تكتبي شيئًا.

حررت صوفيا بتروفنا يدها، وفتحت الباب وغادرت. شقت طريقها إلى المنزل بخطوات بطيئة رغم تعجلها. لا بد أن تغلق غرفتها عليها وتمعن التفكير. أتذهب إلى المدعي العام تسفيتكوف؟ لا. أتذهب إلى محامي دفاع؟ لا.

أخرجت من جيبها الخطاب ووضعته على الطاولة، وخلعت ثياب الخروج، وجلست عند النافذة. أوشكت الظلمة على الحلول، وانعكست الأنوار من الشارع على الغرفة المظلمة. أوشك الربيع على الحلول، ولم يعد الظلام يحل إلا في وقت متأخر. عليها أن تقرر وتحسم أمرها. لكن صوفيا بتروفنا جلست عند النافذة ولم تفكر في شيء. «ضربني المحقق يرشوف...»، لا يزال كوليا يكتب حرف الـ«ض» بحلية. منذ صغره وهو يكتبه دائمًا بهذه الطريقة، وقد علَّمته صوفيا بتروفنا بنفسها أن يكتبه بهذه الطريقة المائلة.

أظلمت تمامًا. نهضت صوفيا بتروفنا حتى تشعل النور، لكنها لم تستطع أن تجد مفتاح النور. أين مكانه في هذه الغرفة؟ لم تستطع أن تتذكر مكانه في الغرفة. تحسست الحوائط، متعثرة في خطوها بالأثاث الذي حركته من مكانه بهدف التنظيف. وجدته أخيرًا.

سرعان ما رأت الخطاب. إنه مجعد ومطوي على الطاولة.

أخرجت صوفيا بتروفنا عود ثقاب من علبته. أشعلت العود وأحرقت الخطاب من زاويته. اشتعل الخطاب، وأخذ ينثني ببطء من زاويته وإلتف في شكل أنبوب صغير. إلتف الخطاب تمامًا حتى لسع أصابعها.

ألقت صوفيا بتروفنا الخطاب المحترق على الأرض، ووطئته بقدمها.

نوفمبر 1939 - فبراير 1940

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

مقدمة المُترجِم..

صوفيا بتروفنا

-1-

-2-

-3-

-4-

-5-

-6-

-7-

-8-

-9-

-10-

-11-

-12-

-13-

-14-

-15-

-16-

-17-

-18-

Notes

[←1]

(1) نوع من المدارس في روسيا يركز على دراسة اللاتينية والتاريخ.

[←2]

(2) كان هجومًا متعمدًا على مبنى الرايخستاج - مقر البرلمان الألماني في برلين - في يوم الإثنين 27 فبراير من عام 1933، أي بعد أربعة أسابيع تمامًا من أداء أدولف هتلر اليمين الدستورية بصفته مستشارًا ألمانيًّا، صرَّحت حكومة هتلر أن الجاني هو مارينوس فان دير لوبي، وهو شيوعي هولندي، وعزت إضرام النار إلى المحرضين الشيوعيين بشكل عام. صدر مرسوم حريق الرايخستاج بعد هذه الحادثة. استخدم الحزب النازي الحريق كذريعة للادعاء بأن الشيوعيين يتآمرون ضد الحكومة الألمانية، ولذلك يُعتبر الحدث محوريًّا في تأسيس ألمانيا النازية. يشير مصطلح «حريق الرايخستاج» إلى أفعال الحكومة لتعزيز مصالحها الخاصة من خلال الموافقة الشعبية على الإنتقام أو التراجع عن الحقوق المدنية.

[←3]

(3) سياسي شيوعي ألماني، شغل منصب زعيم الحزب الشيوعي في ألمانيا.

[←4]

(4) منظمة دولية للخدمة الإجتماعية أنشأتها المنظمة الشيوعية الدولية. تأسست المنظمة في عام 1922 لتكون بمثابة «الصليب الأحمر السياسي الدولي»، وتقدم المساعدات المادية والمعنوية للسجناء السياسيين في إطار «الحرب الطبقية» في جميع أنحاء العالم.

[←5]

(5) المخاطبات الرسمية تكون بضمير الجمع. خاطبها في البداية بضمير المفرد.

(6) عام اندلاع الثورة البلشفية. [←6]

(7) إتحاد منظمات الشباب السوفييتي. [←7]

[←8]

(8) طراز روسي ريفي تكون الياقة فيه منحرفة عن الوسط.

[←9]

(9) في ذلك الوقت لم تكن هناك قوات شرطة نظامية، وقد استبدلت بها السلطة السوفييتية عناصر مدنية تشكل ميليشيات لحفظ الأمن والنظام بالإضافة إلى ذلك سكن الكثيرون في العصر السوفييتي في شقق مشتركة، حيث تحوي كل غرفة أسرة مختلفة، وعادة يلتقي الناس في المطبخ ويتبادلون الحديث.

(10) ستار يفصل فراشها عن فراشه نظرًا لمعيشتهما في غرفة واحدة. [←10]

(11) حذاء فوقي مطاطي للوقاية من المطر والوحل. [11←]

(12) مركبة تبحر فوق الثلج بتوجيه الراكب. [←12]

[←13]

(13) قائد سياسي وعسكري صيني تولى رئاسة حزب الكومنتانج الوطني بعد وفاة صن يات سين عام 1925.

(14) رواية لمايكل آرلن، وهو كاتب إنجليزي من أصل أرمني. [←14]

(15) رواية مغامرات للكاتب الأمريكي جاك لندن. [←15]

(16) يوافق هذا التاريخ عطلة يوم المرأة في الإتحاد السوفييتي. [←16]

(17) كوليا هي صيغة التدليل من نيكولاي. [←17]

[←18]

(18) طبق سلطة روسي يتضمن خضراوات الشمندر والبطاطا والجزر مطبوخة ومقطعة إلى مكعبات، بالإضافة إلى البصل المفروم وكذلك مخلل الملفوف.

(19) ممثلة روسية. أول نجمة في السينما الروسية الصامتة. [←19]

[←20]

(20) سيميون تشيليوسكين: مستكشف قطبي روسي وضابط بحري.

[←21]

(21) قبطان بالبحرية السوفييتية.

[←22]

(22) حركة تحث العمال على بذل المزيد من الجهود، سُميت على اسم ألكس ستاخانوف، وهو أحد العاملين في منجم فحم إعتاد على تحقيق إنتاجية أعلى من المقررة.

[←23]

(23) كانت سفينة «إس إس تشيليوسكين» سفينة بخارية سوفييتية للتنقل عبر الجليد القطبي. إلتصقت بالجليد في المياه القطبية الشمالية في أثناء التنقل على طول الطريق البحري الشمالي من مورمانسك إلى فلاديفوستوك وغرقت. حملت السفينة 111 شخصًا على متنها، وتم إنقاذهم جميعًا.

[←24]
(24) الجرموق هو حذاء خارجي يُلبس فوق الحذاء العادي لمنع البلل والتلوث بالطين.

(25) منظمة الشباب الشيوعي العالمية. [←25]

[←26]

(26) شخصية تشبه سانتا كلوز مستوحاة من الأساطير السلافية القديمة.

[←27]

(27) كان سيرجي ميرونوفيتش كيروف ثوريًّا روسيًّا بارزًا وسياسيًّا سوفييتيًّا وصديقًا شخصيًّا مقربًا لجوزف ستالين، واستُخدم موته عام 1934 ذريعة لبدء التطهير الكبير.

[←28]

(28) أطلقت تسمية العمليات على المحاكمات التي أجروها لبعض قادة الحزب السابقين.

[←29]

(29) أحد أبرز زعماء الثورة البلشفية. بعد موت لينين حدث صراع بينه وبين ستالين، وفي النهاية أطاح به ستالين؛ بنفيه أولًا، ثم قتله في المنفى على يد مأجور. أُلصقت به بالطبع تهم الخيانة والعمالة.

[←30]

(30) الإشارة إلى الحرب الأهلية التي دارت رحاها في إسبانيا بين قوات الجيش اليمينية، والشيوعيين واليساريين من جهة أخرى.

(31) حذاء فوقي مطاطي. [←31]

[←32]

(32) ماريا إيراستوفنا هو اسمها، أما كيباريسوفا فهو اسمها المنسوب إلى زوجها كيباريسوف كعادة الروس.

[←33]

(33) الإشارة إلى إنكار السلطة السوفييتية الشيوعية للدين ومظاهره.

[←34]

(34) القوات الموالية للنظام القيصري القديم والتي حاربت القوات البلشفية إبان فترة الحرب الأهلية.

[←35]

(35) نظرًا لوجود سكان كثيرين في الشقق المشتركة يتم الإتفاق على دق الجرس لكل منهم عددًا مختلفًا من المرات.

(36) ناتاشا هو تدليل ناتاليا. [←36]

(37) نبات مهدئ. [←37]

[←38]

(38) إحدى الأميرات اللاتي طالبن بحقهن في العرش الروسي إبان حكم كاترينا الثانية، وسُجنت وماتت في السجن.

(39) السائر في أثناء النوم. [←39]

(40) اسم عائلة أليك: فينكيلشتاين. [←40]

(41) دواء منوم. [←41]

(42) متاجر تعرض أغراض الناس للبيع مقابل الحصول على عمولة. [←42]